مدخل لمعرفة الإسلام

مقوماته ..خصائصه.. أهدافه.. مصادره

يوسف القرضاوي

www.al-mostafa.com

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وكفى، وسلام على رسله الذين اصطفى، وعلى خاتمهم المجتبى، محمد وآله وصحبه ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فهذا الكتاب نافذة على الإسلام، أو مدخل للتعريف به، لمن لا يعرف أو يعرفه معرفة قاصرة أو مشوهة، وتذكير وتأكيد لمن يعرفه، والذكرى تنفع المؤمنين: تعريف بمقوماته الأساسية، وبخصائصه العامة، وبأهدافه الرئيسية، وبمصادره المعصومة، بالإضافة إلى بيان الحاجة إلى الدين عامة، وإلى الإسلام خاصة.

وبهذا تحددت الأبواب التي يتكون منها هذا الكتاب:

الباب الأول: في الحاجة إلى الدين: حاجة العقل والنفس والفطرة في الفرد، وحاجة المجتمع إلى بواعث وضوابط.

والباب الثاني: في مقومات الإسلام، من العقيدة، والعبادة، والأخلاق، والتشريع.

والباب الثالث: في خصائص الإسلام، من الربانية، والإنسانية، والشمول، والوسطية، والجمع بين الثبات والمرونة.

والباب الرابع: في أهداف الإسلام، من بناء الإنسان الصالح، والأسرة الصالحة، والمجتمع الصالح، والأمة الصالحة، والدولة الصالحة، والدعوة لخير الإنسانية عامة.

والباب الخامس: في مصادر الإسلام، وهى القرآن الكريم، والسنة النبوية مبينته وشارحته.

وقد استنفدت في بيان هذه الأمور الهامة في الإسلام مما كتبته من قبل في كتبي الأخرى، مثل: الإيمان والحياة، والعبادة في الإسلام، والخصائص العامة للإسلام، والمرجعية العليا للقرآن والسنة، وبينات الحل الإسلامي، وغيرها.

فمن أراد أن يتوسع في معرفة الفصول التي كتبتها هنا فليرجع إلى مظانها في كتبنا.

وأرجو أن يكون ما كتبت هنا كافيا للمسلم المعاصر للوقوف على الحقائق الكبرى المتعلقة بالإسلام، وأن يمنحه زادا من الثقافة الإسلامية اللازمة للإنسان المسلم في عصرنا، ليتعرف على جوهر دينه، مبرءا من التجزئة والتجميد والتمييع والتشويه، سالما من تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين.

كما يمكن أن يعطر غير المسلم ـ الذي يرغب في معرفة شيء عن الإسلام ـ صورة صادقة عن أساسيات هذا الدين، الذي أنزل الله به آخر كتبه، وبعث به خاتم رسله، رحمة للعالمين، وحجة على الناس أجمعين.

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

الدوحة في: رجب سنة ١٤١٦هـ، ديسمبر سنة ١٩٩٥م.

الفقير إلى مولاه

يوسف القرضاوي

الباب الأول - الحاجة إلى الدين

معنى الدين

قبل أن نتحدث عن الحاجة إلى الدين عامة، وإلى الإسلام خاصة، ينبغي لنا أن نبين المعنى المراد بكلمة (الدين).

ولا نريد أن نطيل الحديث في ذلك عند اللغويين وعند مؤرخي الأديان، وفلاسفة الملل والنحل، وندخل في الموضوع مباشرة.

وقد بحث ذلك شيخنا الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه القيم (الدين) ثم خرج بالتعريف التالي للدين، أي دين، صحيح أو فاسد، كتابي أو وثني.

قال رحمه الله :

الدين هو:"الاعتقاد بوجود ذات ـ أو ذوات ـ غيبية علوية، لها شعور واختيار، ولها تصرف وتدبير للشؤون التي تعنى الإنسان، اعتقاد من شأنه أن على مناجاة تلك الذات السامية في رغبة ورهبة، وفي خضوع وتمجيد" وبعبارة موجزة، هو "الإيمان بذات إلهية، جديرة بالطاعة والعبادة". هذا إذا نظرنا إلى الدين من حيث هو حالة نفسية بمعنى التدين، أما إذا إليه من هو حقيقة خارجة فنقول: "هو جملة النواميس النظرية التي تحدد صفات تلك القوة الإلهية، وجملة القواعد العملية التي ترسم طريق عبادتها".

فهذا التعريف يشمل الدين من هو، ولو كان قائما على الشرك والوثنية. ذلك أن القرآن سماه دينا، كما في قوله تعالى: (لكم دينكم ولي دين)، وقوله:(ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه).

وقد عرف علماء الإسلام الدين بأنه: "وضع إلهي سائق لذوى العقول السليمة باختيارهم إلى ما فيه الصلاح في الحال والفلاح في المآل".

الأديان السماوية ووحدتها :

ومن المعروف للدارسين أن الأديان نوعان:

١- أديان سماوية أو كتابية، على معنى أن لها كتابا نزل من السماء، يحمل هداية الله للبشر، مثل(اليهودية) التي أنزل الله فيها كتابه(التوراة) على رسوله(موسى) عليه السلام. ومثل(النصرانية) التي أنزل الله فيها كتابه(الإنجيل) على رسوله المسيح(عيسى) عليه السلام. ومثل(الإسلام) الذي أنزل الله فيه(القرآن) على خاتم رسله وأنبيائه(محمد) عليه الصلاة والسلام.

وفرق ما بين الإسلام والأديان الكتابية الأخرى: أنه الله تعالى حفظ أصول الإسلام ومصادره بوصفه الرسالة الأخيرة للبشر، فلم يصبها تحريف ولا تبديل، في حين لم يحفظ مصادر الأديان الأخرى وكتبها المقدسة، فحرفت وبدلت، أو ضاعت.

٢- وأديان وثنية أو وضعية، تنسب إلى الأرض لا السماء، وإلى البشر لا إلى الله مثل(البوذية) في الصين واليابان، و(الهندوسية) في الهند، و(المجوسية) في فارس قديما، وغيرها من الأديان في آسيا وأفريقيا. فهي إما من وضع البشر أساسا مثل البوذية، وإما أن يكون لها كتاب في الأصل ثم ضاع ولم يبق له أثر، كما في المجوسية.

والأصل أن الأديان السماوية واحدة في أصولها العقائدية، وإن اختلفت شرائعها باختلاف أزمنتها، وهذا ما بينه القرآن وأكده: (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه). وقال تعالى: (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا).

بل قرر القرآن أن دين الله واحد، أنزل به جميع كتبه، وبعث به جميع رسله، وهو (الإسلام) كما قال تعالى: (إن الدين عند الله الإسلام)، فكل رسل الله كانوا مسلمين، ودعوا إلى الإسلام، (ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا، ولكن كان حنيفا مسلما)، (ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب: يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون)، وموسى قال لقومه: (يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين)، والحواريون أصحاب عيسى: (قالوا: آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون).

ومحمد خاتم الرسل بعث بالإسلام ـ دين الرسل جميعا ـ مصدقا لما بين يديه ـ أي ما تقدمه ـ من الأديان، ومؤكدا لما تضمنته كتبها من حقائق الدين، وقواعد السلوك، كما جاء القرآن مهيمنا على تلك الكتب، لما أصابها من تحريف لفظي أو معنوي لكلمات الله فيها، متمما لمكارم الأخلاق التي جاء بها رسل الله من قبل، حتى تبلغ غايتها بعد أن بلغت البشرية أشدها، واستكملت رشدها.

يقول تعالى مخاطبا رسوله محمدا عليه الصلاة والسلام: (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه، فاحكم بينهم بما أنزل الله، ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق).

وسنبين في هذا الباب حاجة الإنسان ـ فردا ومجتمعا ـ إلى الدين بصفة عامة، وإلى الأديان الكتابية بصفة خاصة، وإلى الإسلام خاتمتها على وجه الأخص.

حاجة الإنسان إلى الدين

إن حاجة الإنسان إلى الدين عامة، وإلى الإسلام خاصة، ليست حاجة ثانوية ولا هامشية، إنها حاجة أساسية أصيلة، تتصل بجوهر الحياة، وسرالوجود، وأعمق أعماق الإنسان.

وفى أقصى ما يمكن من الإيجاز ـ غير المخل ـ نبين هنا وجه الحاجة إلى الدين في حياة الإنسان:

* حاجة العقل إلى معرفة الحقائق الكبرى في الوجود:

١- حاجة الإنسان إلى عقيدة دينية تنبثق ـ أول ما تنبثق ـ من حاجته إلى معرفة نفسه ومعرفة الوجود الكبير من حوله، أي إلى معرفة الجواب عن الأسئلة التي شغلت بها فلسفات البشر ولم تقل فيها ما يشفي.

فالإنسان منذ نشأته تلح عليه أسئلة يحتاج إلى الجواب عنها: من أين؟ وإلى أين؟ ولم؟! ومهما تشغله مطالب العيش عن هذا التساؤل، فإنه لا بدواقف يوما ليسأل نفسه هذه الأسئلة الخالدة:

(أ) يقول الإنسان في نفسه: من أين جئت وجاء هذا الكون العريض من حولي؟ هل وجدت وحدي أم هناك خالق أوجدني؟ ومن هو؟ وما صلتي به؟ وكذلك هذا العالم الكبير بأرضه وسمائه، وحيوانه ونباته وجماده وأفلاكه، هل وجد وحده أم أوجده خالق مدبر؟.

(ب) ثم ماذا بعد هذه الحياة... وبعد الموت؟ إلى أين المسير بعد هذه الرحلة القصيرة على ظهر هذا الكوكب الأرضي؟ أتكون قصة الحياة مجرد" أرحام تدفع، وأرض تبلع" ولا شيء بعد ذلك ؟ وكيف تستوي نهاية الأخيار الطاهرين الذين ضحوا بأنفسهم في سبيل الحق والخير، ونهاية الأشرار الملوثين الذين ضحوا بغيرهم في سبيل الهوى والشهوة ؟ أتختتم الحياة بالموت؟ . . أم هناك وراء الموت حياة يجزى فيها الذين أساءوا بما عملوا والذين أحسنوا بالحسنى؟

(ج) ثم لماذا وجد الإنسان؟ لماذا أعطى العقل والإرادة وتميز عن سائر الحيوان؟ لماذا سخر له ما في السموات وما في الأرض؟ أهناك غاية من وجوده؟ أله مهمة في حياته؟ أم وجد لمجرد أن يأكل كما تأكل الأنعام ـ ثم ينفق كما تنفق الدواب؟ وإن كانت هناك غاية من وجوده فما هي؟ وكيف يعرفها؟ أسئلة تلح على الإنسان في كل عصر وتتطلب الجواب الذي يشفي الغليل ويطمئن به القلب ، ولا سبيل إلى الجواب الشافي إلا باللجوء إلى الدين إلى العقيدة الدينية الصافية. الدين هو الذي يعرف الإنسان ـ أول ما يعرفه ـ أنه لم يخرج من العدم إلى الوجود صدفة، ولا قام في هذا الكون وحده، وإنما هو مخلوق لخالق عظيم، هو ربه الذي خلقه فسواه فعدله ونفخ فيه من روحه، وجعل له السمع والبصر والفؤاد، وأمده بنعمه الغامرة، منذ كان جنينا في بطن أمه: (ألم نخلقكم من ماء مهين، فجعلناه في قرار مكين، إلى قدر معلوم، فقدرنا فنعم القادرون).

وهذا الكون الكبير من حوله ليس غريبا عنه ولا عدوا له، إنه مخلوق مثله لله لا يسير جزافا ولا يمشي اعتباطا، كل شيء فيه بقدر، وكل أمر فيه بحساب وميزان، إنه نعمة من الله للإنسان ورحمة، ينعم بخيراته، ويستفيد من بركاته، ويتأمل في آياته، فيستدل به عن ربه: (الذي خلق فسوى، والذي قدر فهدى)، (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب).

بهذه العقيدة يرتبط الإنسان بالوجود الكبير، وبرب الوجود كله، ولا يعيش منطويا على نفسه، معزولا عما حوله، أو خائف منه.

والدين هو الذي يعرف الإنسان: إلى أين يسير بعد الحياة والموت؟ إنه يعرفه أن الموت ليس فناء محضا، ولا عدما صرفا، إنما هو انتقال إلى مرحلة أخرى . . إلى حياة برزخية بعدها نشأة أخرى توفى فيها كل نفس ما كسبت، وتخلد فيما عملت، فلا يضيع هناك عمل عامل من ذكر أو أنثى، ولا يفلت من العدل الإلهي جبار أو مستكبر: (يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا

يره) بهذا يعيش الإنسان بوجدانه في الخلود، ويعلم أنه خلق للأبد، وإنما انتقل بالموت من دار إلى دار.

والدين هو الذي يعرف الإنسان: لماذا خلق؟ ولماذا كرم وفضل؟ يعرفه بغاية وجوده، ومهمته فيه، إنه لم يخلق عبثا، ولم يترك سدى، إنه خلق ليكون خليفة الله في الأرض، يعمرها كما أمر الله، ويسخرها لما يحب الله، يكشف مكنوناتها، ويأكل من طيباتها، غير طاغ على حق غيره، ولا ناس حق ربه. وأول حقوق ربه عليه أن يعبده وحده، ولا يشرك به شيئا، وأن يعبده بما شرع، على ألسنة رسله، الذين بعثهم إليه هداة معلمين، مبشرين ومنذرين، فإذا أدى مهمته في هذه الدار المحفوفة بالتكليف والابتلاء، وجد جزاءه هناك في الدار الآخرة: (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا).

بهذا يدرك الإنسان سر وجوده، ويستبين مهمته في الحياة، بينها له بارئ الكون، وواهب الحياة، وخالق الإنسان.

إن الذي يعيش بغير دين ـ بغير عقيدة في الله والآخرة ـ إنسان شقي محروم حقا. إنه في نظر نفسه مخلوق حيواني، ولا يفترق عن الحيوانات الكبيرة التي تدب على الأرض من حوله . . . والتي تعيش وتتمتع ثم تموت وتنفق، بدون أن تعرف لها هدفا، أو تدرك لحياتها سرا، إنه مخلوق صغير تافه لا وزن له ولا قيمة، وجد ولا يعرف: كيف وجد، ولا من أوجده؟ ويعيش ولا يدرى: لماذا يعيش؟ ويموت ولا يعلم لماذا يموت؟ وماذا بعد الموت؟ إنه في شك ـ بل في عمى ـ من أمره كله: محياه ومماته، مبدئه ومنتهاه، كالذين قال الله فيهم: (بل أدارك علمهم في الآخرة، بل هم في شك منها، بل هم منها عمون).

وما أقسى حياة إنسان يعيش في جحيم الشك والحيرة أو في ظلمات العمى والجهل، في أخص ما يخصه: في حقيقة نفسه، وسر وجوده، وغاية حياته. إنه الشقي التعيس حقا، وإن غرق في الذهب والحرير وأسباب الرفاهية والنعيم، وحمل أرقى الشهادات، وتسلم أعلى الدرجات! وفرق كبير بين إنسان كعمر الخيام يقول في حال حيرته وشكه:

لبست ثوب العمر لم أستشر وحرت فيه بين شتى الفكر!

سوف أنضو الثوب عني، ولم أدر: لماذا جئت، أين المفر؟

وبين آخر يقول في يقين وطمأنينة:

وما الموت إلا رحلة، غير أنها من المنزل الفاني إلى المنزل الباقي!

وحرت فيه بين شتى الفكر :

ويقول عمر بن عبد العزيز: " إنا خلقنا للأبد، وإنما ننقل من دار إلى دار".

إن حاجة الإنسان إلى الدين تنبثق ـ قبل كل شيء ـ من حاجته إلى معرفة حقيقة نفسه وإلى معرفة حقائق الوجود الكبرى، وأول هذه الحقائق وأعظمها:

وجود الله تعالى ووحدانيته وكماله سبحانه، فبمعرفته والإيمان به ـ جل شأنه ـ تنحل عقد الوجود، ويتضح للإنسان الغاية والوجهة، ويتحدد المنهج والطريق.

*** حاجة الفطرة البشرية:**

٢- ما ذكرناه من حاجة الإنسان إلى الدين يتصل بحاجاته العقلية، ولكن هناك حاجة الوجدان والشعور أيضا، فالإنسان ليس عقلا فقط، كالأدمغةالإلكترونية، إنما هو عقل ووجدان وروح، هكذا تكونت فطرته، ونطقت جبلته. فالإنسان بفطرته لا يقنعه علم ولا ثقافة، ولا يشبع نهمته فن ولا أدب، ولا يملأ فراغ نفسه زينة أو متعة، ويظل قلق النفس، جوعان الروح، ظمآن الفطرة، وشاعرا بالفراغ والنقص، حتى يجد العقيدة في الله،فيطمئن بعد قلق، ويسكن بعد اضطراب، ويأمن بعد خوف، ويحس بأنه وجد نفسه.

يقول الفيلسوف "أجوست سياته" في كتابه "فلسفة الأديان":

"لماذا أنا متدين؟ إني لم أحرك شفتي بهذا السؤال مرة، إلا وأراني مسوقا للإجابة عليه بهذا الجواب، وهو: أنا متدين، لأني لا أستطيع خلاف ذلك، لأن التدين لازم معنوي من لوازم ذاتي. يقولون لي: ذلك أثر من آثار الوراثة أو التربية أو المزاج، فأقول لهم: قد اعترضت على نفسي كثيرا بهذا الاعتراض نفسه، ولكني وجدته يقهقر المسألة ولا يحلها".

ولا عجب أن وجدنا هذه العقيدة عند كل الأمم، بدائية ومتحضرة، وفي كل القارات شرقية وغربية، وفى كل العصور قديمة وحديثة، وإن كان الأكثرون قد انحرفوا بها عن الصراط المستقيم.

يقول المؤرخ الإغريقي "بلوتارك": قد وجدت في التاريخ مدن بلا حصون، ومدن بلا قصور، ومدن بلا مدارس، ولكن لم توجد أبدا مدن بلا معابد...

ولهذا جعل القرآن الدين ـ بمعنى العقيدة ـ هو الفطرة البشرية نفسها: (فأقم وجهك للدين حنيفا، فطرت الله التي فطر الناس عليها).

* حاجة الإنسان إلى الصحة النفسية والقوة الروحية:

٣- وثمة حاجة أخرى إلى الدين: حاجة تقتضيها حياة الإنسان وآماله فيها، وآلامه بها... حاجة الإنسان إلى ركن شديد يأوي إليه، وإلى سند متين يعتمد عليه، إذا ألمت به الشدائد، وحلت بساحته الكوارث، ففقد ما يحب، أو واجه ما يكره، أو خاب ما يرجو، أو وقع به ما يخاف، هنا تأتي العقيدة الدينية، فتمنحه القوة عند الضعف، والأمل في ساعة اليأس، والرجاء في لحظة الخوف، والصبر في البأساء والضراء، وحين البأس.

إن العقيدة في الله وفي عدله ورحمته، وفي العوض والجزاء عنده في دار الخلود، تهب الإنسان الصحة النفسية والقوة الروحية، فتشيع في كيانه البهجة، ويغمر روحه التفاؤل، وتتسع في عينه دائرة الوجود، وينظر إلى الحياة بمنظار مشرق، ويهون عليه ما يلقى وما يكابد في حياته القصيرة الفانية، ويجد من العزاء والرجاء والسكينة ما لا يقوم مقامه ولا يغنى عنه علم ولا فلسفة ولا مال ولا ولد ولا ملك المشرق والمغرب.

ورضي الله عن عمر إذ قال: "ما أصبت بمصيبة إلا كان لله علي فيها أربع نعم: أنها لم تكن في ديني... وأنها لم تكن أكبر منها... وأنني لم أحرم الرضا عند نزولها... وأنني أرجو ثواب الله عليها".

أما الذي يعيش في دنياه بغير دين، بغير إيمان، يرجع إليه في أموره كلها وبخاصة إذا ادلهمت الخطوب، وتتابعت الكروب، والتبست على الناس المسالك والدروب، يستفتيه فيفتيه، ويسأله فيجيبه، ويستعينه فيعينه، ويمنحه المدد الذي لا يغلب، والعون الذي لا ينقطع الذي يعيش بغير هذا الإيمان يعيش مضطرب النفس، متحير الفكر، مبلبل الاتجاه، ممزق الكيان، شبهه بعض فلاسفة الأخلاق بحال "راقاياك" التعس، الذي يحكون عنه أنه اغتال الملك، فكان جزاؤه أن يربط من يديه ورجليه إلى أربعة من الجياد، ثم ألهب ظهر كل منها، لتتجه مسرعة، كل واحد منها إلى جهة من الجهات الأربع، حتى مزق جسمه شر ممزق!

هذا التمزق الجسمي البشع مثل للتمزق النفسي الذي يعانيه من يحيا بغير دين، ولعل الثاني أقسى من الأول وأنكى في نظر العارفين المتعمقين، لأنه تمزق لا ينتهي أثره في لحظات، بل هو عذاب يطول مداه، ويلازم من نكب به طول الحياة.

ولهذا نرى الذين يعيشون بغير عقيدة راسخة يتعرضون أكثر من غيرهم للقلق النفسي، والتوتر العصبي، والاضطراب الذهني، وهم ينهارون بسرعة إذا صدمتهم نكبات الحياة، فإما انتحروا انتحارا سريعا، وإما عاشوا مرضى النفوس، أمواتا كالأحياء! على نحو ما قال الشاعر العربي قديما:

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء!

إنما الميت من يعيش كئيبا كاسفا باله قليل الرجاء!

وهذا ما يقرره علماء النفس وأطباء العلاج النفسي في العصر الحديث وهو ما سجله المفكرون والنقاد في العالم كله.

يقول المؤرخ الفيلسوف "آرنولد توينبى" :

"الدين إحدى الملكات الضرورية الطبيعية البشرية، وحسبنا القول بأن افتقار المرء للدين يدفعه إلى حالة من اليأس الروحي، تضطره إلى التماس العزاء الديني على موائد لا تملك منه شيئا".

ويقول الدكتور "كارل بانج" في كتابه "الإنسان العصري يبحث عن نفسه" : "إن كل المرضى الذين استشاروني خلال الثلاثين سنة الماضية، من كل أنحاء العالم، كان سبب مرضهم هو نقص إيمانهم، وتزعزع عقائدهم ولم ينالوا الشفاء إلا بعد أن استعادوا إيمانهم".

ويقول "وليم جيمس" فيلسوف المنفعة والذرائع: "إن أعظم علاج للقلق ـ ولا شك ـ هو الإيمان".

ويقول الدكتور "بريال": "إن المرء المتدين حقا لا يعاني قط مرضا نفسيا".

ويقول "ديل كارنيجي" في كتابه "دع القلق وابدأ الحياة": "إن أطباء النفس يدركون أن الإيمان القوي والاستمساك بالدين، كفيلان بأن يقهرا القلق، والتوتر العصبي، وأن يشفيا من هذه الأمراض".

وقد أفاض الدكتور "هنري لنك" في كتابه "العودة إلى الإيمان" في بيان ذلك والتدليل عليه بما لمسه وجربه من وقائع وفيرة، خلال عمله في العلاج النفسي.

حاجة المجتمع إلى بواعث وضوابط أخلاقية

٤- وهناك حاجة أخرى إلى الدين: حاجة اجتماعية، إنها حاجة إلى بواعث وضوابط: بواعث تدفع أفراده إلى عمل الخير، وأداء الواجب وإن لم يوجد من البشر من يراقبهم، أو يكافئهم . . وضوابط تحكم علاقاتهم، وتلزم كل واحد منهم أن يقف عند حده، ولا يعتدي على حق غيره أو يفرط في خير مجتمعه، من أجل شهوات نفسه، أو منفعته المادية العاجلة.

ولا يقال: إن القوانين واللوائح كافية لإيجاد هذه الضوابط وتلك البواعث، فإن القوانين لا تخلق باعثا، ولا تكفي ضابطا، فإن الإفلات منها ممكن، والاحتيال عليها ميسور، ولهذا كان لا بد من بواعث وضوابط أخلاقية، تعمل من داخل النفس الإنسانية لا من خارجها. لا بد من هذا الباعث الداخلي، ومن هذا: الوازع الذاتي، لا بد من الضمير، أو "الوجدان" أو "القلب" ـ سمه ما شئت ـ فهو القوة التي إذا صلحت صلح عمل الإنسان كله، وإذا فسدت فسد كله.

ولقد عرف الناس بالمشاهدة والتجربة واستقراء التاريخ، أن العقيدة الدينية لا يغنى غناءها شيء في تربية الضمير وتزكية الأخلاق، وتكوين البواعث التي تحفز على الخير، والضوابط التي تردع عن الشر، حتى قال بعض قضاة العصر في بريطانيا ـ وقد هاله ما رأى من جرائم موبقة، رغم تقدم العلم، واتساع الثقافة، ودقة القوانين: "بدون أخلاق لا يوجد قانون، وبدون إيمان لا توجد أخلاق".

ولا غرو أن اعترف بعض الملاحدة أنفسهم بأن الحياة لا تستقيم بدون دين، بدون عقيدة في الله وفي الجزاء في الآخرة، حتى قال "فولتير": "لو لم يكن الله موجودا لوجب علينا أن نخلقه"! أي نخترع للناس إلها يرجون رحمته ويخافون عذابه، ويلتمسون رضاءه

فيعملون الصالحات، ويتجنبون السيئات، ويقول مرة أخرى ساخرا: " لم تشككون في وجود الله، ولولاه لخانتني زوجتي، وسرقني خادمي"!!

وقال "بلوتارخ": "إن مدينة بلا أرض تقوم عليها، أسهل من قيام دولة بلا إله"!!

*** حاجة المجتمع إلى التعاون والتماسك:**

٥- ثم إن للدين دورا كبير الأهمية في توثيق الصلة بين الناس بعضهم وبعض، باعتبارهم جميعا عبيدا لرب واحد خلقهم، وأبناء لأب واحد نسلهم، فضلا عما ينشئه الدين بينهم من أخوة العقيدة، وآصرة الإيمان.

(إنما المؤمنون إخوة) وما تحدثه هذه الأخوة الدينية من آثار في الأنفس والحياة، حتى نجد أحدهم يحب لأخيه ما يحب لنفسه، بل يؤثر أخاه على نفسه، ولو كان به خصاصة.

يقول شيخنا الدكتور محمد عبد الله دراز، في كتابه القيم (الدين):

لا حاجة بنا إلى التنبيه على أن الحياة في الجماعة لا قيام لها إلا بـ "التعاون" بين أعضائها، وأن هذا التعاون إنما يتم "بقانون" ينظم علاقاته، ويحدد حقوقه وواجباته، وأن هذا القانون لا غنى له عن "سلطان" نازع وازع، يكفل مهابته في النفوس ويمنع انتهاك حرماته.

تلك كلها مبادئ مقررة، والحديث فيها معاد مملول.

وإنما الشأن كل الشأن في هذا السلطان النازع الوازع: ما هو؟

فالذي نريد أن نثبته في هذه الحلقة من البحث هو أنه ليس على وجه الأرض قوة تكافئ قوة التدين أو تدانيها في كفالة احترام القانون، وضمان تماسك المجتمع واستقرار نظامه، والتئام أسباب الراحة والطمأنينة فيه.

السر في ذلك أن الإنسان يمتاز عن سائر الكائنات الحية بأن حركاته وتصرفاته الاختيارية يتولى قيادتها شيء لا يقع سمعه ولا بصره، ولا يوضع في يده ولا عنقه، ولا يجري في دمه، لا يسري في عضلاته وأعصابه، وإنما هو معنى إنساني روحاني، اسمه الفكرة والعقيدة، فالإنسان أبدا أسير هذه الفكرة والعقيدة.

ولقد ضل قوم قلبوا هذا الوضع وحسبوا أن الفكر والضمير لا يؤثران في الحياة المادية والاقتصادية، بل يتأثران بها، هذا الرأي الماركسي هو قبل كل شيء نزول بالإنسان عن عرش كرامته، ورجوع به القهقرى إلى مستوى البهيمية، ثم هو تصوير مقلوب للحقائق الثابتة المشاهدة في سلوك الأفراد والجماعات في كل عصر؛ فلكي يختار الناس أن يحيوا حياة مادية لا نصيب فيها للقلب ولا للروح، لا بد أن يقنعوا أنفسهم بادئ ذي بدء بأن سعادتهم هي في هذا النوع من الحياة. فالإنسان مقود أبدا بفكرة: صحيحة أو فاسدة، فإذا صلحت عقيدته صلح فيه كل شيء؟ وإن فسدت فسد كل شيء.

أجل إن الإنسان يساق من باطنه لا من ظاهره، وليست قوانين الجماعات ولا سلطان الحكومات بكافيين وحدهما لإقامة مدينة فاضلة تحترم فيها الحقوق، وتؤدى الواجبات على وجهها الكامل، فإذا الذي يؤدي واجبه رهبة من السوط أو السجن أو العقوبة المالية، لا يلبث أن يهمله متى اطمأن إلى سيفلت من طائلة القانون.

ومن الخطأ البين أن نظن أن في نشر العلوم والثقافات وحدها ضمانا للسلام والرخاء، وعوضا عن التربية والتهذيب الديني والخلقي؟ ذلك أن العلم سلاح ذو حدين: يصلح للهدم والتدمير، كما يصلح للبناء والتعمير، ولا بد في حسن استخدامه من رقيب أخلاقي يوجهه لخير الإنسانية وعمارة الأرض، لا إلى نشر الشر والفساد.

ذلكم الرقيب هو العقيدة والإيمان.

كلام الإمام محمد عبده:

وقد بين الأستاذ الإمام محمد عبده في كتابه الفريد "رسالة التوحيد" وجوه حاجة البشر إلى النبوة والرسالة الإلهية، وأنها للنوع الإنساني بمثابة العقل للفرد الإنساني، وأن البشر لا يستغنون عن هداية الله لهم بحال، لهذا أرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين: (وإن من أمة إلا خلا فيها نذير)، ولقد أكد هذا في تفسيره لسورة الفاتحة وبيان حاجة الناس إلى هدى الله سبحانه عند آية: (اهدنا الصراط المستقيم) كما نقله صاحب المنار رحمهما الله جميعا.

وعاد إلى ذلك في تفسير قوله تعالى من سورة النساء عقب بيان أحكام المواريث: (تلك حدود الله، ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها...) فقال رحمه الله:

"طاعة الرسول هي طاعة الله بعينها لأنه إنما يأمرنا بما يوحيه إليه الله من مصالحا التي فيها سعادتنا في الدنيا والآخرة، وإنما يذكر طاعة الرسول مع طاعة الله لأن من الناس من كانوا يعتقدون قبل اليهودية وبعدها، وكذلك بعد الإسلام إلى اليوم: أن الإنسان يمكن أن يتغنى بعقله وعلمه عن الوحي، يقول أحدهم: إنني أعتقد أن للعالم صانعا عليما حكيما، وأعمل بعد ذلك بما يصل إليه عقلي من الخير واجتناب الشر. وهذا خطأ من الإنسان، ولو صح ذلك لما كان في حاجة إلى الرسل، وقد تقدم في تفسير سورة الفاتحة: أن الإنسان محتاج بطبيعته النوعية إلى هداية الدين، وأنها هي الهداية الرابعة التي وهبها الله للإنسان بعد هداية الحواس والوجدان والعقل، فلم يكن العقل في عصر من عصوره كافيا لهداية أمة من أممه ومرقيا له بدون معونة الدين.

اعتراض من الملحدين وجوابه:

وقد عقب العلامة السيد رشيد رضا في تفسير المنار على كلام الشيخ عبده بإيراد اعتراض من المرتابين والملاحدة وأجاب عنه إجابة مطولة، فقال رحمه الله:

"يرد على هذا من جانب المرتابين والملاحدة: إننا نرى كثيرا من أفراد الناس لا يدينون بدين، وهم في درجة عالية من الأفكار والآداب، وحسن الأعمال التي تنفعهم وتنفع الناس، حتى أن العاقل المجرد عن التعصب الديني يتمنى لو كان الناس كلهم مثله، بل يسعى كثير من الفلاسفة لجعل الأمم مثل هؤلاء الأفراد في آدابهم وارتقائهم".

وأجيب عن هذا (أولا): بأن الكلام في هداية الجماعات من البشر، كالشعوب والقبائل والأمم الذين يتحقق بارتقائهم معنى الإنسانية في الحياة الاجتماعية، سواء كانت بل بدوية أو مدنية، وقد علمنا التاريخ أنه لم تقم مدنية في الأرض من المدنيات التي وعاها وعرفها إلا على أساس الدين، حتى مدنيات الأمم الوثنية كقدماء المصريين والكلدانيين واليونانيين، وعلمنا القرآن أنه ما من أمة إلا وقد خلا فيها نذير مرسل من الله عز وجل لهدايتها.

فنحن بهذا نرى أن تلك الديانات الوثنية كان لها أصل إلهي، ثم سرت الوثنية إلى أهلها حتى غلبت على أصلها، كما سرت إلى من بعدهم من أهل الديانات، التي بقي أصلها كله أو بعضه على سبيل القطع، أو على سبيل الظن. وليس للبشر ديانة يحفظ التاريخ أصلها حفظا تاما إلا الديانة الإسلامية، وهو مع ذلك قد دون في أسفاره كيفية سريان الوثنية الجلية أو الخفية إلى كثير من المنتسبين إليها كالنصيرية، وسائر الباطنية وغيرهم، ممن غلب عليهم التأويل أو الجهل، حتى إنه يوجد في هذا العصر من

المنتمين إلى الإسلام من لا يعرفون من أحكامه الظاهرة غير قليل مما يخالفون به جيرانهم، كجواز أكل لحم البقر في الأطراف الشاسعة من الهند! وكيفية الزواج ودفن الموتى في بعض بلاد روسيا وغيرها!! فمن علم هذا لا يستبعد تحول الديانات الإلهية القديمة إلى الوثنية.

فاتباع الرسل وهداية الدين أساس كل مدنية، لأن الارتقاء المعنوي هو الذي يبعث على الارتقاء المادي. وها نحن أولاء نقرأ من كلام شيخ الفلاسفة الاجتماعيين في هذا العصر "هربرت سبنسر" أن آداب الأمم وفضائلها التي هي قوام مدنيتها مستندة كلها إلى الدين، وقائمة على أساسه، وإن بعض العلماء يحاولون تحويلها عن أساس الدين وباءها على أساس العلم والعقل، وأن الأمم إلى يجرى فيها هذا التحويل، لا بد أن تقع في طور التحويل في فوضى أدبية، لا تعرف عاتبها ولا يحدد ضررها. هذا معنى كلامه في بعض كتبه. وقد قال هو للأستاذ الإمام في حديث له معه: إن الفضيلة قد اعتلت في الأمة الإنجليزية في هذه السنين الأخيرة، من حيث قوى فيها الطمع المادي.

ونحن نعلم أن الأمة الإنجليزية من أشد أمم أوروبا تمسكا بالدين، مع كون مدنيتها أثبت، وتقدمها أعم، لأن الدين قوام المدنية بما فيه من روح الفضائل والآداب، على أن المدنية الأوروبية بعيدة عن روح الديانة المسيحية، وهو الزهد في المال والسلطان وزينة الدنيا، فلولا غلبة بعض آداب الإنجيل على تلك الأمم لأسرفوا في مدنيتهم المادية إسرافا غير مقترن بشيء من البر وعمل الخير، وإذا لبادت مدنيتهم سريعا. ومن يقل: إنه سيكون أبعدها عن الدين أقربها إلى السقوط والهلاك لا يكون مفتاتا في الحكم، ولا بعيدا عن قواعد علم الاجتماع فيه.

فحاصل هذا الجواب الأول عن ذلك الإيراد: أن وجود أفراد من الفضلاء غير المتدينين لا ينقض ما قاله الأستاذ الإمام من كون الدين هو الهداية الرابعة لنوع الإنسان التي تسوقه إلى كماله المدني في الدنيا، كما تسرقه إلى سعادة الآخرة.

وثانيا: إنه لا يمكن الجزم بأن فلانا الملحد الذي تراه عالي الأفكار والآداب قد نشأ على الإلحاد وتربى عليه من صغره، حتى يقال: إنه قد استغنى في ذلك عن الدين، لأننا لا نعرف أمة من الأمم تربي أولادها على الإلحاد، وإننا نعرف بعض هؤلاء الملحدين الذين يعدون في مقدمة المرتقين بين قومهم، ونعلم أنهم كانوا في نشأتهم الأولى من أشد الناس تدينا واتباعا لآداب دينهم وفضائله، ثم طرأ عليهم الإلحاد في الكبر، بعد الخوض في الفلسفة التي تناقض بعض أصول ذلك الدين الذي نشأوا عليه، والفلسفة قد تغير

بعض عقائد الإنسان، وآرائه، ولكن لا يوجد فيها ما يقبح له الفضائل والآداب الدينية، أو يذهب بملكاته وأخلاقه الراسخة كلها، وإنما يسطو الإلحاد على بعض آداب الدين كالقناعة بالمال الحلال، فيزين لصاحبه أن يستكثر من المال ولو من الحرام، كأكل حقوق الناس والقمار بشرط أن يتقي ما يجعله حقيرا بين من يعيش معهم، أو يلقيه في السجن، وكالعفة في الشهوات، فيبيح له وآدابه، وأما غير الراقين منهم فهم الذين لا يصدهم عن الفساد في الأرض وإهلاك الحرث والنسل إلا القوة القاهرة.

ولولا أن دول أوروبا قد نظمت فرق المحافظين على الحقوق من الشحنة والشرطة (البوليس والضابطة) أتم تنظيم، وجعلت الجيوش المنظمة عونا لهم عند الحاجة، لما حفظ لأحد عندها عرض ولا مال، ولعمت بلادها الفوضى والاختلال، ولقد كانت الحقوق والأعراض محفوظة في الأمم من غير وجود هذه القوى المنظمة أيام كان الدين مرعيا في الآداب والأحكام فتبين بهذا أن طاعة الله ورسله لا بد منها لسعادة الدنيا".

شهادة التاريخ والواقع:

إن تجارب التاريخ وتجارب الواقع كلها تنطق بأصالة الإيمان في الحياة، وضرورته للإنسان، فهو ضرورة للفرد ليطمئن ويسعد ويزكو، وهو ضرورة للمجتمع ليستقر ويتماسك ويرقى.

يقول الأستاذ العقاد: "إن تجارب التاريخ تقرر لنا أصالة الدين في جميع حركات التاريخ الكبرى، ولا تسمح لأحد أن يزعم أن العقيدة الدينية شيء تستطيع الجماعة أن تلغيه، ويستطيع الرد أن يستغني عنه، في علاقته بتلك الجماعة، أو فيما بينه وبين سريرته المطوية من حوله، ولو كانوا من أقرب الناس إليه".

"ويكرر لنا التاريخ أنه لم يكن قط لعامل من عوامل الحركات الإنسانية أثر أقوى وأعظم من عامل الدين، وكل ما عداه من العوامل الأخرى في حركات الأمم، فإنها تتفاوت فيه القوة بمقدار ما بينه وبين العقيدة الدينية من المشابهة في التمكن من أصالة الشعور وبواطن السريرة.

"هذه القوة لا تضارعها قوة العصبية ولا قوة الوطنية ولا قوة العرف، ولا قوة الأخلاق، ولا قوة الشرائع والقوانين، إذ كانت هذه القوة إنما ترتبط بالعلاقة بين المرء ووطنه، أو العلاقة بينه وبين مجتمعه، أو العلاقة بينه وبين نوعه، على تعدد الأوطان والأقوام.

"أما الدين فمرجعه إلى العلاقة بين المرء وبين الوجود بأسره، وميدانه يتسع لكل ما في الوجود من ظاهر وباطن، ومن علانية وسر، ومن ماض أو مصير، إلى غير نهاية، بين آزال لا تحصى في القدم، وآباد لا تحصى فيما ينكشف عنه عالم الغيوب. وهذا على الأقل هو ميدان العقيدة الدينية في مثلها الأعلى، وغاياتها القصوى، وإن لم تستوعبها ضمائر المتدينين في جميع العصور.

"ومن أدلة الواقع على أصالة الدين: أنك تلمس هذه الأصالة عند المقابلة بين الجماعة المتدينة، والجماعة التي لا دين لها، أو لا تعتصم من الدين بركن مكين.

"وكذلك تلمس هذه الأصالة عند المقابلة بين فرد يؤمن بعقيدة من العقائد الشاملة، وفرد معطل الضمير، مضطرب الشعور، يمضى في الحياة بغير محور يلوذ به، وبغير رجاء يسمو إليه.

"لهذا.. الفارق بين الجماعتين، وبين الفردين، كالفارق بين شجرة راسخة في منبتها وشجرة مجتثة من أصولها!

"وقل أن ترى إنسانا معطل الضمير، على شيء من القوة والعظمة، إلا أمكنك أن تتخيله أقوى من ذلك وأعظم، إذا حلت العقيدة في وجدانه محل التعطل والحيرة".

لا بديل عن الدين

ومن الناس من يتصور إمكان الاستغناء عن الدين بالعلم الحديث حينا، أو المذاهب الفكرية "الأيديولوجيات" الحديثة حينا آخر.

وكلا التصورين خطأ.

فقد بين الواقع الناطق أنه لا شيء يغني عن الدين، ويقوم بديلا عنه في أداء رسالته الضخمة في حياة الإنسان.

العلم ليس بديلا عن الدين:

أما العلم فليس بديلا عن الدين والإيمان بحال. فإن مجال العلم غير مجال الدين. وأريد بـ "العلم" هنا العلم بمفهومه الغربي المحدود، لا بمفهومه الإسلامي الشامل ـ الذي

يشمل العلم بالظواهر الجزئية للكون، والعلم بحقائق الوجود الكبرى ـ أي ما يشمل علم الدنيا، وعلم الدين. فليس هو علم المادة وخواصها فحسب، بل العلم المتعلق بالكون والحياة والإنسان، وخالقها سبحانه.

العلم بالمفهوم الغربي لا يصلح بديلا عن الدين، لأن مهمة هذا العلم أن ييسر للإنسان أسباب الحياة، لا أن يفسر له ألغازها. العلم يعين الإنسان على حل مشكلة العيش، ولكنه لا يعينه على حل مشكلة الوجود وقضاياه الكبرى.

ولهذا نرى أعظم البلاد في عصرنا تقدما في العلم، وأخذا بأسبابه، يشكو أهلها من الفراغ الروحي، والقلق النفسي، والاضطراب الفكري، والشعور الدائم بالتفاهة والاكتئاب والضياع. ونرى شبابها ينقلبون بين شتى البدع الفكرية والسلوكية، ثائرين على آلية الحياة، ومادية الحضارة، وإن لم يهتدوا إلى المنهج السليم، والصراط المستقيم.

وهذا هو سر العوج والشذوذ والانحرافات، التي لمسها العالم كله في سلوك أولئك الشباب الحائرين، الذين يسمونهم "الخنافس" أو "الهيبيين" وأشباههم ممن ضاق ذرعهم بتفاهة العيش، وتمردوا على حضارة الغرب وإن نشأوا بين أحضانها.

إن العلم الحديث محدود الوسع، محدود القدرة، محدود المجال.

في وسع العلم أن يمنح الإنسان الوسائل والآلات، ولكن ليس في وسعه ولا من اختصاصه أن يمنحه الأهداف والغايات، وما أتعس الإنسان إذا تكدست لديه الوسائل دون أن يعرف لنفسه هدفا ولا لحياته قيمة، إلا أهداف السباع في العدوان، أو أهداف البهائم في الأكل والسفاد. أما هدف رفيع يليق بمواهب الإنسان، وخصائص الإنسان، وكرامة الإنسان، فلا.

إن الدين وحده هو الذي يمنح الإنسان أهدافا عليا للحياة وغايات كبرى للوجود، ويجعل له فيه مهمة ورسالة، ولحياته قيمة واعتبارا، كما يمنحه القيم الخلقية والمثل العليا التي تحبسه عن الشر، وتحفزه على الخير، لغير منفعة مادية عاجلة.

لقد قوى العلم الجانب المادي في الإنسان إلى أبعد حد، ولكنه أضعف الجانب الروحي فيه إلى أدنى مستوى.

فقد أعطى العلم الإنسان جناحي طائر فحلق في الفضاء، وأعطاه خياشيم حوت فغاص في أعماق الماء، ولكنه لم يعطه قلب إنسان!

وحين يعيش الإنسان في الحياة بغير "قلب الإنسان" تستحيل أدوات العلم في يديه إلى مخالب وأنياب تقتل وترهب، وإلى معاول وألغام تنسف وتدمر.

تستحيل أدوات العلم إلى أسلحة ذرية، وقنابل نابالم، وغازات سامة، وأسلحة كيماوية، وجرثومية تنشر الموت والخراب عند استعمالها، وتشيع الذعر والخوف قبل استعمالها.

أجل قد استطاع العلم أن يضع قدم الإنسان على سطح القمر، ولكنه لم يملك أن يضع يده على سر وجوده وغاية حياته!

لقد اكتشف الإنسان بالعلم، "أشياء" كثيرة، ولكنه لم يكتشف حقيقة نفسه! أوصله علم القرن العشرين إلى القمر. ولكن لم يوصله إلى السعادة والطمأنينة على ظهر الأرض! جلب من هناك بعض الصخور والأتربة، ولكنه لم يجد هناك ما يخرجه من التعاسة والقلق والضياع في كوكبه!

أصلح العلم ظاهر الإنسان، وعجز عن إصلاح باطنه، لم يستطع أن ينفذ إلى تلك "اللطيفة الربانية" المدركة الواعية، الشاعرة الحساسة، التي إذا صلحت صلح الإنسان كله، وإذا فسدت فسد الإنسان كله، ألا وهي القلب، أو النفس، أو الروح، سمها ما شئت، فهي حقيقة الإنسان!

أعطى العلم إنسان القرن العشرين سلاحا انتصر به على بعض قوى الطبيعة، ولم يعطه ما ينتصر به على نفسه: على شهواته، وشكه، وقلقه، وخوفه، وتخبطه، وصراعه الداخلي والاجتماعي.

لقد تقدم الطب الحديث والجراحة إلى أقصى حدودهما في هذا القرن، وبدأ الأطباء يقولون: إن العلم يستطيع القضاء على كل مرض غير الموت والشيخوخة!! ولكن الأمراض تكثر وتتشعب وتنتشر بسرعة مذهلة، ومنها "الأمراض العصبية" و"النفسية" التي هي نتائج وأعراض "التناقض" الشديد الذي يمر به الفرد والمجتمع. وسر ذلك أن العلم المادي ـ على سعته واكتشافاته ـ لم يعرف حقيقة الإنسان، الذي عرف المادة وقوانينها، ولكنه لم يعرف نفسه، ولا غرو أن كتب أحد أقطاب العلم "ألكسيس كاريل" في كتابه الشهير: "الإنسان ذلك المجهول".

ومن هنا حاول العلم الحديث أن يغذي كل الجوانب المادية في الجوانب المادية في الجسم الإنساني، ولكنه فشل في تغذية النفس الإنسانية مما فيها من شعور وأماني وإرادة . . . وكانت حصيلة ذلك جسما طويل القامة، قوي العضلات، ولكن الجانب الآخر ـ وهو أصل الإنسان ـ أصبح يعانى من أزمات لا حل لها.

لقد أكدت إحصائية: أن ثمانين في المائة (٨٠%) من مرضى المدن الأمريكية الكبرى يعانون أمراضا ناتجة عن أزمات نفسية وعصبية من ناحية أو أخرى.

ويقول علم النفس الحديث: إن من أهم جذور هذه الأمراض النفسية: الكراهية والحقد والخوف والإرهاق واليأس والترقب والشك والآثرة والانزعاج من البيئة، وكل هذه الأعراض تتعلق مباشرة بالحياة المحرومة من الإيمان بالله.

الفلسفة ليست بديلا عن الدين:

لقد تبين لنا أن إنسان العلم الحديث هو "ذلك المجهول" الذي لم يستطع العلم أن يسبر غوره، وأن يتعرف على حقيقته، وأن ينفذ إلى أعماقه، كما بين ذلك "ألكسيس كاريل" و "رينيه دوبو"، وغيرهما. لقد عرف العلم الجمادات أو المادة، وحللها واكتشف قوانينها، ولكنه عجز عن معرفة الإنسان، لأن الإنسان من التركيب والتعقيد بحيث لا يعرفه إلا من خلقه فسواه: (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير).

ومادام العلم يجهل الإنسان، فلا يؤمل منه أن يحسن توجيهه وتربيته والتشريع له، بل بدا اليوم أن العلم ـ بعبارة أدق: تطبيقاته التكنولوجية ـ أصبح خطرا على فطرة الإنسان، وبيئة الإنسان.

و"إنسان الفلسفة" ليس أحسن حظا من إنسان العلم، والفلسفة رغم اهتمامها بالإنسان ـ منذ أنزلها "سقراط" من السماء إلى الأرض ووجه العقل الإنساني إلى محاولة اكتشاف ذاته: اعرف نفسك ـ لم تتفق على رأي في نظرتها إلى الإنسان: أهو روح أم مادة؟ جسم يفنى أم روح يبقى؟ عقل أم شهوة؟ ملاك أم شيطان؟ الأصل فيه الخير أم الشر؟ أهو إنسان كما نراه، أم ذئب مقنع؟ أو أناني أم غيري؟ أهو فردي أم جماعي؟ أهو ثابت أم متطور؟ أتجدي فيه التربية أم لا تجدي؟ أهو مختار أم مجبور؟

اختلفت الفلسفات في الإجابة عن هذه التساؤلات وتناقضت، فلا تستطيع أن تخرج منها بطائل، حتى قال شيخنا الدكتور عبد الحليم محمود ـ وهو أستاذ الفلسفة في

كلية أصول الدين ـ قبل أن يكون شيخا للأزهر: "الفلسفة لا رأي لها، لأنها تقول الرأي وضده، والفكرة ونقيضها".

هنا نجد الفلسفة الإلهية مناقضة للفلسفة المادية، والفلسفة المثالية مناقضة للفلسفة الواقعية، وفلسفة الواجب معارضة لفلسفة المنفعة أو اللذة، إلى آخر ما نعرفه من تناقضات في الساحة الفلسفية، فهذا يثبت، وذاك ينفي، وهذا يبني، وذاك يهدم.

ومن هنا لا تستطيع الفلسفة وحدها أن تهدى الإنسان سبيلا أو تشفي له غليلا، أو تمنحه منهجا يركن له ويطمئن إليه، ويقيم حياته على أساسه.

وأبعد الفلسفات عن هداية الإنسان وإسعاده هي الفلسفات المادية، التي تنكر أن للكون إلها، وأن للإنسان روحا، وأن وراء الدنيا آخرة. وعلى رأس هذه الفلسفات: الفلسفة الماركسية القائمة على المادة الجدلية، والتي تتبنى مقولة بعض الفلاسفة الماديين: ليس صوابا أن الله خلق الإنسان، بل الصواب أن الإنسان هو الذي خلق الله !!

ومثل ذلك: الفلسفات العبثية والعدمية والشكية، فكلها فلسفات تهدم ولا تبني. وتميت ولا تحيى.

ويبين شيخنا الدكتور دراز الفرق بين: الفلسفة والدين، فيرى أن الفلسفة فكرة هادئة باردة، أما الدين فهو قوة دافعة، فعالة، خلاقة، لا يقف فيسبيلها شيء في الكون إلا استهانت به أو تبلغ هدفها.

ذلك هو فصل ما بين الفلسفة والدين، غاية الفلسفة المعرفة، وغاية الدين الإيمان، مطلب الفلسفة فكرة جافة، ترتسم في صورة جامدة، ومطلب الدين روح وثابة، وقوة محركة.

لا نقول كما يقول كثير من الناس: إن الفلسفة تخاطب العقول، وإن الدين في كل أوضاعه لا يقنع بعمل العقل قليلا أو كثيرا حتى يضم إليه ركون القلب.

الفلسفة تعمل إذا في جانب من جوانب النفس، والدين يستحوذ عليها في جملها. ومن هنا يستنبط فرق دقيق بين الفلسفة والدين:

ذلك أن غاية الفلسفة نظرية، حتى في قسمها العملي، وغاية الدين عملية، حتى في جانبه العلمي، فأقصى مطالب الفلسفة أن تعرفنا الحق والخير ما هما؟ وأين هما؟ ولا يعنيها بعد ذلك موقفنا من الحق الذي تعرفه، والخير الذي تحدده. أما الدين فيعرفنا الحق لا لنعرفه فحسب، بل لنؤمن به ونحبه ونمجده، ويعرفنا الواجب لنؤديه ونوفيه، ونكمل نفوسنا بتحقيقه.

ثم يبين شيخنا أن الدين حركة شعبية (ديمقراطية) عامة، والفلسفة حركة (أرستقراطية) خاصة. فالدين يسعى بطبيعته إلى الانتشار، والفلسفة تجنح إلى العزلة، داعية الدين وسط الجماهير، ورجل الفلسفة في برجه العاجي، فإذا رأيت فيلسوف يدعو إلى مذهبه فقد تغير وضعه، وتحولت فكرته إلى إيمان، وإذا رأيت مؤمنا لا يهتم إلا بنفسه فقد استحالت نار إيمانه إلى رماد.

تفنيد مقولة (الدين أفيون الشعب)

أما دعوى الماركسيين: أن الدين (أفيون الشعوب) يفعل في عقولها ما تفعله المخدرات بالأفراد، ويشغلهم عن حقوقهم المسلوبة، بأماني الآخرة، ويخضعهم لإرادة الظلمة والطغاة، فيطيعونهم وهم راضون ـ فهي دعوى مردودة ـ .

ذلك أن الدين الصحيح لا يخدر الشعب، ولا يلهيه عن المطالبة بحقه في الدنيا، استغراقا بطلب النعيم في الآخرة! الدين الصحيح لا يقر الظلم، ولا يرضى بالفساد والانحراف، فإن صح هذا الادعاء في شأن بعض الأديان، فلا يصح بحال في شأن الإسلام.

الإسلام في الحقيقة ثورة إنسانية كبرى، ثورة لتحرير الإنسان ـ كل إنسان ـ من العبودية والخضوع لغير خالقه. ثورة في عالم الفكر والضمير والشعور، وثورة في عالم الواقع والتطبيق.

وكان عنوان هذه الثورة هي هذه الكلمة العظيمة، كلمة التوحيد: "لا إله إلا الله" فكل مدع أو متعاط للألوهية في الأرض، بالقول أو بالفعل، هو مزور لا وجود له، ولا يستحق البقاء. وكل الذين زعموا لأنفسهم ـ أو زعم لهم بعض الناس ـ أنهم أرباب مع الله، أو من دون الله، يجب أن يسقطوا إلى الأبد، ويتواروا عن مسرح الحياة.

الناس إذن سواسية، لا يجوز أن يتعبد بعضهم بعضا، أو يطغى بعضهم على بعض، فإذا ظلم بعض الناس وطغى وأفسد، كان على الناس أن يعترضوا طريقه، ويأخذوا على يديه، وإلا كانوا شركاءه في الإثم واستحقاق العقوبة العادلة من الله .

يقول القرآن الكريم: (ولا تركنوا إلى الدين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون).

ويقول: (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة، واعلموا أن الله شديد العقاب).

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أوشك الله أن يعمهم بعقاب من عنده".

ويوجب على كل من رأى منكرا ـ أي ظلما أو فسادا أو انحرافا ـ أن يعمل على تغييره بكل ما يستطع من قوة: "من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإذ لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان".

والتغيير بالقلب ـ الذي هو أدنى الدرجات وأضعف الإيمان ـ ليس أمرا سلبيا تافها. إنها جمرة الغضب والكراهية للفساد والمنكر تتوهج وتتقد في الجوانح حتى تجد الفرصة للتغيير بالقول أو الفعل، باللسان أو اليد، وأدنى ثمراته العاجلة النفور من الظلمة والمفسدين والمقاطعة لهم، فلا يؤاكلهم ولا يشاربهم، ولا يجالسهم ولا يصاحبهم.

وقد عد النبي صلى الله عليه وسلم مقاومة الظلم والفساد الداخلي، كمقاومة الغزو والعدوان الخارجي، كلاهما جهاد في سبيل الله، بل حين سئل: أي الجهاد أفضل؟ قال: "كلمة حق عند سلطان جائر". فاعتبر ذلك أفضل الجهاد وأعلاه.

فهذا دين يحرض على مقاومة الظلم حتى الموت، ويعد الميت في سبيل ذلك شهيدا في سبيل الله، بل في طليعة الشهداء المرموقين، بجوار حمزة بن عبد المطلب، سيد الشهداء، كما قال عليه الصلاة والسلام:

"سيد الشهداء حمزة، ورجل قام إلى إمام جائر، فأمره ونهاه فقتله".

إن الإسلام يربي المسلم على الشعور بالكرامة وعزة النفس، ويجعل ذلك من خصائص الإيمان وآثاره: (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين)، بل من خصائص الإنسانية ولوازمها: (ولقد كرمنا بني آدم).

ولهذا يبرأ الإسلام من كل من يرضى لنفسه بالذل والمهانة، ويصبر على القيد يوضع في رجله، أو الغل يوضع في عنقه دون أن يقاوم الظلم، أو يحاول التخلص منه، ولو بالهجرة إلى أرض الله الفسيحة. يقول القرآن:

(إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها، فأولئك مأواهم جهنم، وساءت مصيرا).

و يرد الرسول صلى الله عليه وسلم منطق الإسلام الجبري أو السلبي لأحداث الحياة ووقائع الدهر، باسم الإيمان بالقدر. ويعتبر ذلك ضربا من العجز المذموم في دين الله. إن النبي صلى الله عليه وسلم قضى بين رجلين، فقال المقضي عليه لما أدبر: حسبي الله ونعم الوكيل! فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الله يلوم على العجز، ولكن عليك بالكيس، فإذا غلبك أمر، فقل: حسبي الله، ونعم الوكيل".

كره النبي صلى الله عليه وسلم من الرجل أن يواري عجزه بالحسبلة والحوقلة، بدل أن يواجه الأمر بما ينبغي له من الحكمة والتفطن. فذكر الله في غير موضعه عجز واستسلام.

ومن هنا جاء في وصاياه صلى الله عليه وسلم: "المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف... احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز.

وجاء في أدعيته التي علمها لبعض أصحابه: "اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال".

ففي هذا الدعاء استعاذة بالله تعالى من كل مظاهر الضعف التي تعتري الإنسان فتغلبه وتقهره وتذله.

ومثل ذلك ما جاء في دعاء القنوت الذي يرويه ابن مسعود، ويقرؤه الأحناف في صلاة الوتر كل ليلة: "اللهم إنا نستعينك ونستهديك ونستغفرك ونتوب إليك، ونؤمن بك ونتوكل عليك، ونثني عليك الخير كله، نشكرك ولا نكفرك، ونخلع ونترك من يفجرك".. فانظر ما تحمله هذه العبارة : "ونخلع ونترك من يفجرك" من تحريض سافر على خلع ومقاومة كل ظالم فاجر، مهما تكن مكانته ومنصبه في الناس.

فهل يقال في مثل هذا الدين الذي يدعو إلى الثورة على الباطل والضعف والعجز والعبودية، ويحرض على نصرة الحق والقوة والحرية ـ إنه أفيون الشعب: يخدره ويمنيه بنعيم الجنة، ليسكت على مظالم حياته الدنيا؟!!

لعل "ماركس" كان معذورا حين قال ما قال، لأنه لم يعرف الإسلام، ولم يعرف موقفه من الظلم والبغي والفساد، مع أن المنهج العلمي كان يلزمه ألا يصدر حكمه عاما شاملا إلا بعد استقراء كامل، ودراسة تامة لكل الأديان ـ أو للأديان الكبرى على الأقل ـ وأثرها في الأمم على مدار التاريخ، فإن لم يستطع كان عليه أن يحكم على الدين الذي عرفه لا على غيره. هذا هو مقتضى الأمانة العلمية، والمنهج العلمي.

الباب الثاني - مقومات الإسلام

١- العقيدة

العقيدة الإسلامية هي خاتمة العقائد السماوية، وقد تكفل بيانها والتدليل عليها القرآن الكريم، وسنة الرسول العظيم، متمثلة في الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين.

هذه العقيدة هي التي تحل لغز الوجود، وتفسر للإنسان سر الحياة والموت وتجيب عن أسئلته الخالدة: من أين؟ والى أين؟ ولم؟ هذه العقيدة ليست من متحدثات الإسلام، ولا مما ابتكره محمد عليه الصلاة والسلام، إنها العقيدة المصفاة، التي بعث بها أنبياء الله جميعا، ونزلت بها كتب السماء قاطبة، قبل أن ينال منها التحريف والتبديل، إنها الحقائق الخالدة التي لا تتطور ولا تتغير، عن الله وعن صلته بهذا العالم.. ما يبصره منه وما لا يبصره، وعن حقيقة هذه الحياة ودور الإنسان فيها وعاقبته بعدها. إنها الحقائق التي علمها آدم لبنيه، وأعلنها نوح في قومه، ودعا إليها هود وصالح، عادا وثمود، ونادى بها إبراهيم وإسماعيل وإسحاق وغيرهم من رسل الله، وأكدها موسى في توراته، وداود في زبوره، وعيسى في إنجيلهكل ما فعله الإسلام، هو أنه نقى هذه العقيدة من الشوائب الدخيلة، وصفاها من الأجسام الغريبة، التي أدخلتها العصور عليها، فكدرت صفاءها، وأفسدت توحيدها بالتثليث والشفاعات، واتخاذ الأرباب من دون الله، وأفسدت تنزيهها بالتشبيه والتجسيم، ونسبة ما في البشر من قصور ونقص إلى الله تعالى علوا كبيرا، وشوهت نظرتها إلى الكون والحياة والإنسان، وعلاقته بالله ووحيه وما جاء به من تعاليم، كما عرض الإسلام هذه العقيدة عرضا جديدا، يليق بالرسالة التي اقتضت حكمة الله أن تكون خاتمة الرسالات الإلهية، وأن تكون غاية لكل الشر، إلى قيام الساعة.

جاءت عقيدة الإسلام فنقت فكرة التوحيد وكمال الألوهية مما شابها على مر العصور، ونقت فكرة النبوة والرسالة مما عراها من سوء التصور.

ونقت فكرة الجزاء الأخروي مما دخل عليها من أوهام الجاهلين، وتحريف الغالين، وانتحال المبطلين؟ ودجل المشعوذين.

والعناصر الأساسية لهذه العقيدة هي: الإيمان بالله، والإيمان بالنبوات، والإيمان بالآخرة.

ويكن أن تجمل في: الإيمان بالله واليوم الآخر، والإيمان بالله يشمل الإيمان بوجوده، والإيمان بوحدانيته، والإيمان بكماله.

وجود الله تعالى:

لقد قامت الأدلة على أن وراء هذا الكون قوة عليا تحكمه وتديره وتشرف عليه، سماها أحدهم "العلة الأولى"، وسماها غيره "العقل الأول"، وسماها ثالث: "المحرك الأول"، وسماها القرآن العربي المبين، وكتب السماء بهذا الاسم الجامع لصفات الجمال والجلال: "الله"

هذه القوة العليا، وبعبارة أخرى: هذا الإله العظيم، ليس في استطاعة العقل البشري إدراك كنهه، ولا معرفة حقيقته، كيف وقد عجز عن معرفة كنه ذاته وعن كنه النفس وحقيقة الحياة وكثير من حقائق الكون المادية من كهربية ومغناطيسية وغيرها؟ وما عرف إلا آثارها، فكيف يطمع في معرفة ذات الله العلي الكبير؟ (ذلكم الله ربكم، لا إله إلا هو، خالق كل

شيء فاعبدوه، وهو على كل شيء وكيل، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير).

هذا الإله ليس إله فصيلة محدودة، ولا إله شعب خاص، ولا إله إقليم معين. وإنما هو (رب العالمين).. (رب السموات والأرض)... (رب المشرق والمغرب)... (قل أغير الله أبغي ربا وهو رب كل شيء).

ولنستمع إلى ما قصه القرآن علينا من حوار موسى وفرعون ليتبين لنا شمول ربوبيته سبحانه وتعالى:

(قال فرعون وما رب العالمين، قال رب السموات والأرض وما بينهما، إن كنتم موقنين، قال لمن حوله ألا تستمعون، قال ربكم ورب آباؤكم الأولين، قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون، قال رب المشرق والمغرب وما بينهما، إن كنتم تعقلون).

وقد دلل القرآن على وجود الله بطرق عديدة:

١- فهو يلفت العقول والأذهان إلى ما في الكون من آيات تنطق بأن وراءها صانعا حكيما. وهو قانون بديهي عند العقل الذي يؤمن بمبدأ "السببية" إيمانا طبيعيا لا يحتاج إلى اكتساب أو تدليل: (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيى به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون).

هذا الخلق لا بد له من خالق، وهذا النظام لا بد له من منظم:

(أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون، أم خلقوا السموات والأرض)، (قال فمن ربكما يا موسى، قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى).

٢- ويستثير الفطرة الإنسانية السليمة التي بها يدرك المرء إدراكا مباشرا أن له ربا وإلها قويا عظيما يكلؤه ويرعاه: (فأقم وجهك للدين حنيفا، فطرت الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون).

وإذا اختفت هذه الفطرة في ساعات الرخاء واللهو فإنها تعود إلى الظهور عند الشدة والبأساء، وسرعان ما يذوب الطلاء الكاذب، وينكشف المعدن الأصيل للنفس البشرية، فتعود إلى ربها داعية متضرعة: (هو الذي يسيركم في البر والبحر، حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم

أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين).

وتبدو هذه الفطرة حين يفاجأ الإنسان بالسؤال عن مصدر هذا الكون ومدبره فلا يملك بفطرته إلا أن ينطق معلنا "الله": (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله).

(قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر، فسيقولون الله، فقل أفلا تتقون، فذلكم الله ربكم الحق، فماذا بعد الحق إلا الضلال، فأنى تصرفون).

٣- ويتشهد القرآن بالتاريخ الإنساني على أن الإيمان بالله وبرسله كان سفينة النجاة لأصحابه، وأن التكذيب به وبرسله كان نذير الهلاك والبوار، ففي نوح يقول: (فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا، إنهم كانوا قوما عمين).

وفي هود يقول: (فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين).

وفى صالح وقومه ثمود يقول: (فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا، إن في ذلك لآية لقوم يعلمون، وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون).

وفى رسل الله جميعا يقول تعالى مخاطبا رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم: (ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا، وكان حقا علينا نصر المؤمنين).

إنما الله إله واحد:

وهو تعالى إله واحد ليس له شريك، ولا له مثيل في ذاته أو صفاته أو أفعاله: (قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد)... (وإلهكم إله واحد، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم).

وكل ما في الكون من إبداع ونظام يدل على أن مبدعه ومدبره واحد، ولو كان وراء هذا الكون أكثر من عقل يدبر، وأكثر من يد تنظم، لاختل نظامه، واضطربت سننه، وصدق الله: (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، فسبحان الله رب العرش عما يصفون)... (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله، إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض، سبحان الله عما يصفون).

هو تعالى واحد في ربوبيته، فهو رب السموات والأرض ومن فيهن وما فيهن، خلق كل شيء فقدره تقديرا، وأعطى كل شيء خلقه ثم هدى، ولا يستطع أحد من خلقه أن يدعي أنه الخالق أو الرازق أو المدبر لذرة في السماء أو في الأرض: (وما ينبغي لهم وما يستطيعون).

وهو تعالى واحد في ألوهيته، فلا يستحق العبادة إلا هو، ولا يجوز التوجيه بخوف أو رجاء إلا إليه. فلا خشية إلا منه، ولا ذل إلا إليه، ولا طمع إلا في رحمته، ولا اعتماد إلا عليه، ولا انقياد إلا لحكمه.

والبشر جميعا ـ سواء أكانوا أنبياء وصديقين أم ملوكا وسلاطين ـ عباد الله، لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، فمن أله واحدا منهم، أو خشع له وحنى رأسه، فقد جاوز به قدره، ونزل بقدر نفسه.

ومن ثم كانت دعوة الإسلام إلى الناس كافة وإلى أهل الكتاب خاصة: (تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله).

ومحمد نبي الإسلام لم يقل القرآن عنه إلا أنه: (رسول قد خلت من قبله الرسل).. ولم يقل هو عن نفسه إلا أنه "عبد لله ورسوله".

والأنبياء جميعا ليسوا ـ في نظر القرآن ـ إلا بشرا مثلنا، اصطفاهم الله لحمل رسالته إلى خلقه، ودعوتهم إلى عبادته وتوحيده.

ومن هنا كان عنوان العقيدة الإسلامية يتمثل في هذه الكلمة العظيمة التي عرفت لدى المسلمين بكلمة "التوحيد" وكلمة "الإخلاص" وكلمة "التقوى" وهي: "لا إله إلا الله".

كانت "لا إله إلا الله" إعلان ثورة على جبابرة الأرض وطواغيت الجاهلية، ثورة على كل الأصنام والآلهة المزعومة من دون الله: سواء أكانت شجرا أم حجرا أم بشرا.

وكانت "لا إله إلا الله" نداء عالميا لتحرير الإنسان من عبودية الإنسان والطبيعة وكل من خلق الله وما خلق الله.

وكانت "لا إله إلا الله" عنوان منهج جديد، ليس من صنع حاكم ولا فيلسوف، إنه منهج الله الذي لا تعنو الوجوه إلا له، ولا تنقاد القلوب إلا لحكمه ولا تخضع إلا لسلطانه.

وكانت "لا إله إلا الله" إيذانا بمولد مجتمع جديد، يغاير مجتمعات الجاهلية، مجتمع متميز بعقيدته، متميز بنظامه، لا عنصرية فيه ولا إقليمية ولا طبقية، لأنه ينتمي إلى الله وحده، ولا يعرف الولاء إلا له سبحانه.

ولقد أدرك زعماء الجاهلية وجبابرتها ما تنطوي عليه دعوة "لا إله إلا الله" من تقويض عروشهم والقضاء على جبروتهم وطغيانهم وإعانة المستضعفين عليهم، فلم يألوا جهدا في حربها، وقعدوا بكل صراط يوعدون ويصدون عن سبيل الله من آمن ويبغونها عوجا.

لقد كانت مصيبة البشرية الكبرى أن أناسا منهم جعلوا من أنفسهم أو جعل منهم قوم آخرون آلهة في الأرض أو أنصاف آلهة، لهم يخضع الناس ويخشعون، ولهم يركعون ويسجدون، ولهم ينقادون ويسلمون.

لكن عقيدة التوحيد سمت بأنفس المؤمنين فلم يعد عندهم بشر إلها، ولا نصف إله، أو ثلث إله، أو ابن إله، أو محلا حل فيه الإله!

ولم يعد البشر يسجد لبشر أو ينحني لبشر، أو يقبل الأرض بين يدي بشر، وهذا أصل الأخوة الإنسانية الحقة. وأصل الحرية الحقة، وأصل الكرامة الحقة، إذ لا أخوة بين عابد ومعبود، ولا حرية لإنسان أمام إله أو مدعي ألوهية، ولا كرامة لمن يركع أو يسجد لمخلوق مثله أو يتخذه حكما من دون الله.

كمال الله تعالى:

ولا بد مع الإيمان بوجود الله ووحدانيته من الإيمان بأنه تعالى متصف بكل كمال يليق بذاته الكريمة، منزه عن كل نقص: (لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد).. (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير).

دل على ذلك: هذا الكون البديع وما فيه من إحكام عجيب، وهدت إلى ذلك الفطرة البشرية النيرة، وفصلت ذلك رسالات الله تعالى إلى أنبيائه.

فهو سبحانه العليم الذي لا يخفى عليه شيء: (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، ويعلم ما في البر والبحر، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين)

وهو العزيز الفعال لما يريد، الذي لا يغلبه شيء، ولا يقهر إرادته شيء: (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء، بيدك الخير، إنك على كل شيء قدير)

وهو القدير الذي لا يعجزه شيء. يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء ويحيى العظام وهى رميم، ويعيد الخلق كما بدأهم أول مرة وهو أهون عليه: (تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير).

وهو الحكيم الذي لا يخلق شيئا عبثا، ولا يترك شيئا سدى، ولا يفعل فعلا، أو يشرع شرعا إلا لحكم، عرفها من عرفها وجهلها من جهلها هذا ما شهد به الملائكة في الملأ الأعلى: (قالوا سبحانك لا علم لا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم).

وما شهد به أنبياء الله وأولياؤه، وأولو الألباب من عباده: (الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك).

وهو الرحيم الذي سبقت رحمته غضبه، ووسعت رحمته كل شيء، كما وسع علمه كل شيء، وقد حكى القرآن دعاء الملائكة: (ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما)... وقال: (عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء)... وقد بدأ سور القرآن بـ: (بسم الله الرحمن الرحيم) للدلالة على سعة رحمته وتقوية الرجاء في قلوب عباده، وإن تورطوا في الذنوب والآثام: (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعا، إنه هو الغفور الرحيم).

الإله في الإسلام ليس بمعزل عن هذا الكون وما فيه من فيه كإله أرسطو الذي سماه "المحرك الأول" أو "العلة الأولى" ووصفه بصفات كلها "سلوب" لا فاعلية لها ولا تأثير، ولا تصريف ولا تدبير، فإذا هذا الإله كما صورته الفلسفة الأرسطية ـ لا يعلم إلا ذاته، ولا يدري شيئا عما يدور في هذا الكون العريض.

إنه أرسطو والفلسفة اليونانية لم يخلق هذا الكون من عدم، بل العالم عندهم أزلي غير محدث ولا مخلوق.

وإله أرسطو لا صلة له بهذا العالم، ولا عناية له به، ولا يدبر أمرا فيه، لأنه لا يعلم ما يجرى فيه مما يلج في الأرض أو يخرج منها، وما ينزل من السماء أو يعرج فيها. كل ما يقوله أرسطو ومن تبعه عن الإله أنه ليس بجوهر ولا عرض، وليس له بداية ولا نهاية، وليس مركبا ولا جزءا من مركب وليس داخل العالم ولا خارجه، ولا متصلا به ولا منفصلا عنه، وهذه السلبيات لا تجعل الإله كان يرجى ويخشى، ولا تربط الناس بربهم رباطا محكما يقوم على المراقبة والتقوى والثقة والتوكل والخشية والمحبة.

هذا الإله المعزول عن الكون، الذي عرفه الفكر اليوناني، وعنه انتقل إلى الفكر الغربي الحديث ـ لا يعرفه الإسلام، وإنما يعرف إلها: (خلق الأرض والسموات العلى، الرحمن على العرش استوى، له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى، وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى، الله لا إله إلا هو، له الأسماء الحسنى)

(الله لا إله إلا هو، الحي القيوم، لا تأخذه سنة ولا نوم، له ما في السموات وما في الأرض، من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء، وسع كرسيه السموات والأرض، ولا يؤده حفظهما، وهو العلي العظيم).

الإله في الإسلام هو خالق كل شيء، ورازق كل حي، ومدبر كل أمر، أحاط بكل شيء علما، وأحصى كل شيء عددا، ووسع كل شيء رحمة، فخلق فسوى، وقدر فهدى، يسمع ويرى، ويعلم السر والنجوى: (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة).

له الخلق والأمر، وبيده ملكوت كل شيء، يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل، ويخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، ويرزق من يشاء بغير حساب.

الكون كله: عاليه ودانيه، ناطقه وصامته، أحياؤه وجماداته، أفلاكه ونجومه... كلها خاضع لأمر الله، منقاد لقانون الله، شاهد بوحدانيته وعظمته، ناطق بآيات علمه وحكمته، دائم التسبيح بحمده: (تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم، إنه كان حليما غفورا).

إن تسبيح الكون لله، وسجوده لله، حقيقة كبيرة، عميت عنها أعين، وصمت عنها آذان، ولكنها تجلت للذين ينظرون بأعين بصائرهم، ويسمعون بآذان قلوبهم، فإذا هم يرون الوجود كله محرابا، والعوالم كلها ساجدة خاشعة، ترتل آيات التسبيح والثناء على العزيز الحكيم، الرحمن الرحيم:

(ولله يسجد من في السموات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال).. (ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس)... (سبح لله ما في السموات والأرض، وهو العزيز

الحكيم، له ملك السموات والأرض، يحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير، هو الأول والآخر والظاهر والباطن، هو بكل شيء عليم)

الإيمان بالنبوات:

والإيمان بالنبوة ليس بالأمر العجيب بعد الإيمان بكمال الله وحكمته ورحمته ورعايته للكون وتدبير للعالم، وتكريمه للإنسان، بل هذا الإيمان فرع عن ذلك ولا بد، فما كان الله ليخلق الإنسان، ويسخر له ما في الكون جميعا، ثم يتركه يتخبط على غير هدى، بل كان من تمام الحكمة أن يهديه سبيل الآخرة كما هداه سبيل الحياة الدنيا، وأن يهيئ له زاده الروحي، كما هيأ له زاده المادي، وأن ينزل الوحي من السماء لحيي به القلوب والعقول، كما أنزل من السماء ماء لتحيى به الأرض بعد موتها.

ما كان من الحكمة أن يترك الإنسان لنفسه تتنازع الفرد قواه وملكاته المختلفة، وتتنازع الجماعة أهواؤها ومصالحها المتضاربة، وإنما كانت الحكمة في عكس هذا. كانت الحكمة في إرسال رسله بالبينات، ليهدوا الناس إلى الله، ويقيموا الموازين بالقسط بين العباد.

ولهذا استنكر رسل الله من قومهم أن يعجبوا لإرسال الله رسولا عنه يبلغهم بأمره ونهيه، فيقول نوح: (يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين، أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون، أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون).

ويقول هود لقومه ما يقرب من هذه المقالة.

يقول القرآن ردا على المشركين الجاحدين برسالة محمد صلى الله عليه وسلم:

(أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم، قال الكافرون إن هذا لساحر مبين).

والهداية بالوحي هي أعلى مراتب الهداية التي منحها الله للإنسان.

فهناك الهداية الفطرية الكونية، وهي التي عبر عنها أحد العلماء حين قيل له: متى عقلت؟ قال: منذ نزلت من بطن أمي، جعت فالتقمت الثدي وتألمت فبكيت!!.

وهذه الهداية ليست خاصة بالإنسان، بل تشمل الحيوان والطير والحشرات وهي التي عبر عنها بالوحي في شأن النحل: (وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون) بل هي منبثة في أجزاء الكون كله: في النبات الذي يمتص غذاءه من عناصر الأرض بنسب محدودة وقدر معلوم، وفي الكواكب التي يسير كل منها في مداره الذي لا يتعداه، وفق قانون لا يتخطاه: (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار، وكل في فلك يسبحون) فهي هداية عامة للمخلوقات علويها وسفليها، ولهذا ذكر لنا القرآن جواب موسى لفرعون قال: (فمن ربكما يا موسى، قال ربا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى).

وقال تعالى: (سبح اسم ربك الأعلى، الذي خلق فسوى، والذي قدر فهدى).

والمرتبة الثانية للهداية: مرتبة الحواس الظاهرة كالسمع والبصر والشم والذوق، والباطنة كالجوع والعطش والفرح والحزن، وهذه المرتبة أرقى من الأولى، ففيها نوع من الانتباه، وقدر من الإدراك، وإن كانت لا تسلم من الخطأ، كما نرى في السراب الذي يحسبه الرائي ماء، وفى الظل الذي يظنه ساكنا وهو متحرك.

والمرتبة الثالثة: هداية العقل بملكاته وقواه المختلفة، وهو أرقى رتبة من الحواس وإن كان كثيرا ما يعتمد على الحس في الحكم والاستنباط. وبذلك يتعرض للخطأ، كما يتعرض له في ترتيب المقدمات واستخلاص النتائج. والعقل في عملياته العليا من خصائص الإنسان، التي تفرد بها عن الحيوان.

والمرتبة الرابعة: هي هداية الوحي، وهي التي تصحح خطأ العقل، وتنفي وهم الحواس، وترسم الطريق إلى ما لا سبيل العقل أن يصل إليه وحده، وترفع الخلاف فيما لا يمكن أن تتفق عليه العقول.

(كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم)، (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط).

الإيمان بالآخرة:

أهذا ملخص قصة الحياة والإنسان؟ أرحام تدفع وأرض تبلع ولا شيء بعد هذا؟ أو كما عبر القرآن عن قوم: (إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين)

إذن فما سر هذا الشعور الخفي، والوجدان الكامن الذي يغمر فطرة الإنسان من قديم الزمن بأنه لم يخلق لمجرد هذه الحياة، ولتلك المدة القصيرة؟ ما سر هذا الشعور بأن الإنسان في هذه الدنيا غريب أو عابر سبيل وأنه ضيف يوشك أن يرتحل إلى دار إقامة؟

هذا الشعور الذي رأيناه عند قدماء المصريين فحنطوا ـ استجابة له ـ جثث الموتى، وبنوا الأهرام، والذي ظهرت آثاره في أمم شتى بأساليب مختلفة.

ثم كيف يسيغ العقل أن ينفض سوق هذه الحياة وقد نهب فيها من نهب، وسرق فيها من سرق، وقتل فيها من قتل. وبغى فيها من بغى، وتجبر من تجبر، ولم يأخذ أحد من هؤلاء عقابه، بل تستر واختفى فأفلت ونجا.. أو تمكن من إخضاع الناس له بسيف القهر والجبروت.

وفي الجانب الآخر: كم أحسن قوم، وضحوا وجاهدوا ولم ينالوا جزاء ما قدموا، إما لأنهم كانوا جنودا مجهولين، أو لأن الحسد والحقد جعل الناس يتنكرون لهم بدل أن يعرفوا فضلهم، أو لأن الموت عاجلهم قبل أ، ينعموا بثمرة ما عملوا من خير. وكم من قوم دعوا إلى الحق، واستمسكوا به، ودافعوا عنه، فوقف الظالمون في طريقهم، وأوذوا وعذبوا واضطهدوا وشردوا، وسقطوا صرعى في سبيله. وأعداؤهم الطغاة في أمن وعافية بل في ترف ونعيم.

ألا يسيغ العقل ـ الذي يؤمن بعدالة الإله الواحد ـ بل يطلب، أن توجد دار أخرى يجزى فيها المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته؟ هذا ما تنطق به الحكمة السارية في كل ذرة في السموات والأرض: (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين، ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون، إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين)، (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا، ذلك ظن الذين كفروا، فويل للذين كفروا من النار، أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار).

(أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم، ساء ما يحكمون، وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون).

(ولله ما في السموات وما في الأرض ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى).

أما بعث الأحياء بعد الموت فليس بعزيز على من خلقهم أول مرة:

(وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه، وله المثل الأعلى في السموات والأرض، وهو العزيز الحكيم).

خصائص العقيدة الإسلامية:

١- عقيدة واضحة:

للعقيدة الإسلامية مزايا لا تتوافر لغيرها من العقائد..

فهي عقيدة واضحة بسيطة لا تعقيد فيها ولا غموض، تتلخص في أن وراء هذا العالم البديع المنسق المحكم ربا واحدا خلقه ونظمه. وقدر كل شيء فيه تقديرا، وهذا الإله أو الرب ليس له شريك ولا شبيه ولا صاحبة ولا ولد:

(بل له ما في السموات والأرض، كل له قانتون).

وهذه عقيدة واضحة مقبولة، فالعقل دائما يطلب الترابط والوحدة وراء التنوع والكثرة، ويريد أن يرجع الأشياء دوما إلى سبب واحد.

فليس في عقيدة التوحيد ما في عقائد التثليث أو المثنوية ونحوها من الغموض والتعقيد الذي يعتمد دائما على الكلمة المأثورة عند غير المسلمين: "اعتقد وأنت أعمى".

٢- عقيدة الفطرة:

وهى عقيدة ليست غريبة عن الفطرة ولا مناقضة لها، بل هي منطبقة عليها انطباق المفتاح المحدد على قفله المحكم، وهذا هو صريح القرآن: (فأقم وجهك للدين حنيفا، فطرت الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون).

وصريح الحديث النبوي: "كل مولود يولد على الفطرة ـ أي على الإسلام وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه". فدل على أن الإسلام هو فطرة الله، فلا يحتاج إلى تأثير من الأبوين.

أما الأديان الأخرى من يهودية ونصرانية ومجوسية فهي من تلقين الآباء والأمهات.

٣- عقيدة ثابتة:

وهى عقيدة ثابتة محددة لا تقبل الزيادة والنقصان، ولا التحريف والتبديل فليس لحاكم من الحكام، أو مجمع من المجامع العلمية، أو مؤتمر من المؤتمرات الدينية، أن يضيف إليها أو يحور فيها، وكل إضافة أو تحوير مردودة عل صاحبها، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: "من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد" أي مردود عليه.

والقرآن يقول مستنكرا: (أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله).. وعلى هذا فكل البدع والأساطير والخرافات التي دست في بعض كتب المسلمين أو أشيعت بين عامتهم باطلة مردودة لا يقرها الإسلام ولا تؤخذ حجة عليه.

٤- عقيدة مبرهنة:

وهي عقيدة "مبرهنة" لا تكتفي من تقرير قضاياها بالإلزام المجرد والتكليف الصارم، ولا تقول كما تقول بعض العقائد الأخرى: "أعتقد وأنت أعمى" أو "آمن ثم اعلم" أو "أغمض عينيك ثم اتبعني" أو "الجهالة أم التقوى"، بل يقول كتابها بصراحة: (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين)، ولا يقول أحد علمائها ما قاله القديس الفيلسوف المسيحي "أوغسطين": "أومن بهذا لأنه محال"! بل يقول علماؤها: إن إيمان المقلد لا يقبل.

وكذلك لا تكتفي بمخاطبة القلب والوجدان والاعتماد عليهما أساسا للاعتقاد، بل تتبع قضاياها بالحجة الدامغة، والبرهان الناصع، والتعليل الواضح، الذي يملك أزمة العقول، ويأخذ الطريق إلى القلوب، ويقول علماؤها: إن العقل أساس النقل... والنقل الصحيح لا يخالف العقل الصريح.

فنرى القرآن في قضية الألوهية يقيم الأدلة من الكون ومن النفس ومن التاريخ على وجود الله وعلى وحدانيته وكماله.

وفى قضية البعث يدلل على إمكانه بخلق الإنسان أول مرة، وخلق السموات والأرض، وإحياء الأرض بعد موتها، ويدلل على حكمته بالعدالة الإلهية في إثابة المحسن، وعقوبة المسيء:

(ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى).

٥- عقيدة وسط: :

وهى عقيدة وسط لا تجد فيها إفراطا ولا تفريطا..

هي وسط بين الذين ينكرون كل ما وراء الطبيعة مما لم تصل إليه حواسهم، وبين الذين يثبتون للعالم أكثر من إله، بل يحلون روح الإله في الملوك والحكام! بل في بعض الحيوانات والنبات مثل الأبقار والأشجار! فقد رفضت الإنكار الملحد، كما رفضت التعديد الجاهل، والإشراك الغافل، وأثبتت للعالم إلها واحدا، لا إله إلا هو: (قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون، سيقولون لله، قل أفلا تذكرون، قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم، سيقولون لله، قل أفلا تتقون، قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون، سيقولون لله، قل فأنى تسحرون).

وهي عقيدة وسط في صفات الإله..

فليس فيها الغلو في التجريد الذي جعل صفات الإله مجرد سلوب لا تعطى معنى، ولا توحي بخوف أو رجاء ـ كما فعلت الفلسفة اليونانية ـ فكل ما وصفت به الإله أنه ليس بكذا وليس بكذا.. من غير أن تقول ما صفات هذا الإله الإيجابية؟ وما أثرها في هذا العالم؟

ويقابل هذا أنها خلت من التشبيه والتجسيم الذي وقعت فيه عقائد أخرى كاليهودية، التي جعلت الخالق كأحد المخلوقين من الناس، ووصفته بالنوم والتعب والراحة، والتحيز والمحاباة والقسوة..و.. وجعلته يلتقي ببعض الأنبياء فيصارعه فيغلبه ويصرعه، فلم يتمكن الرب من الإفلات منه حتى أنعم عليه بلقب جديد!

الباب الثالث - خصائص الإسلام

الربانية

إن الخصيصة الأولى من الخصائص العامة للإسلام هي: الربانية.

والربانية ـ كما يقول علماء العربية ـ مصدر صناعي منسوب إلى "الرب"، زيدت فيه الألف والنون، على غير قياس، ومعناه: الانتساب إلى الرب، أي: الله، سبحانه وتعالى، ويطلق على الإنسان أنه "رباني" إذا كان وثيق الصلة بالله، عالما بدينه وكتابه، معلما له. وفي القرآن الكريم:

(ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون).

والمراد من الربانية هنا أمران:

١. ربانية الغاية والوجهة. ٢ -ربانية المصدر والمنهج.

١- ربانية الغاية والوجهة:

فأما ربانية الغاية والوجهة، فنعني بها: أن الإسلام يجعل غايته الأخيرة وهدفه البعيد، هو حسن الصلة بالله تبارك وتعالى، والحصول على مرضاته، فهذه هي غاية الإسلام، وبالتالي هي غاية الإنسان، ووجهة الإنسان، ومنتهى أمله، وسعيه، وكدحه في الحياة: (يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه)، (وأن إلى ربك المنتهى).

ولا جدال في أن للإسلام غايات وأهدافا أخرى إنسانية واجتماعية، ولكن عند التأمل، نجد هذه الأهداف في الحقيقة خادمة للهدف الأكبر، وهو مرضاة الله تعالى، وحسن مثوبته. فهذا هو هدف الأهداف، أو غاية الغايات.

في الإسلام تشريع ومعاملات، ولكن المقصود منها هو تنظيم حياة الناس حتى يستريحوا، ويبرأوا من الصراع على المتاع الأدنى، ويفرغوا لمعرفة الله تعالى، وعبادته، والسعي في مراضيه.

وفي الإسلام جهاد وقتال للأعداء، ولكن الغاية هي:

(حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله)

وفي الإسلام حث على المشي في مناكب الأرض، والأكل من طيباتها، ولكن الغاية هي القيام بشكر نعمة الله وأداء حقه: (كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور)

وكل ما في الإسلام من تشريع وتوجيه وإرشاد، إنما يقصد إلى إعداد الإنسان ليكون عبدا خالصا لله، لا لأحد سواه. ولهذا كان روح الإسلام وجوهره هو التوحيد.

من ثمرات هذه الربانية في النفس والحياة:

ومما لا ريب فيه أن لهذه الربانية ـ ربانية الغاية والوجه ـ فوائد وأثارا جمة في النفس والحياة، يجني الإنسان ثمارها في هذه الدنيا، فضلا عن ثمراتها في الآخرة. وهي ثمار في غاية الأهمية.

أولا- معرفة غاية الوجود الإنساني:

أن يعرف الإنسان لوجوده غاية، ويعرف لمسيرته وجهة. ويعرف لحياته رسالة، وبهذا يحس أن لحياته قيمة ومعنى، ولعيشه طعما ومذاقا، وأنه ليس ذرة تافهة تائهة في الفضاء، ولا مخلوقا سائبا يخبط خبط عشواء في ليلة ظلماء، كالذين جحدوا الله أو شكوا فيه، فلم يعرفوا: لماذا وجدوا؟ ولماذا يعيشون؟ ولماذا يموتون؟كلا، إنه لا يعيش في عماية، ولا يمشي إلى غير غاية، بل يسير على هدى من ربه، وبينة من أمره، واستبانة لمصيره، بعد أن عرف الله وأقر له بالوحدانية.

ثانيا- الاهتداء إلى الفطرة:

ومن ثمرات هذه الربانية وفوائدها، أن يهتدي الإنسان إلى فطرته التي فطره الله عليها، والتي تطلب الإيمان بالله تعالى، ولا يعوضها شيء غيره، يقول تعالى: (فأقم وجهك للدين حنيفا، فطرت الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله).

واهتداء الإنسان إلى فطرته ليس كسبا رخيصا، بل هو كسب كبير، وغنى عظيم، فيه يعيش المرء في سلام ووئام مع نفسه، ومع فطرة الوجود الكبير من حوله، فالكون كله رباني الوجهة، يسبح بحمد الله: (وإن من شيء إلا يسبح بحمده).

والحقيقة أن في فطرة الإنسان فراغا لا يملؤه علم، ولا ثقافة ولا فلسفة، إنما يملؤه الإيمان بالله جل وعلا.

وستظل الفطرة الإنسانية تحس بالتوتر، والجوع والظمأ، حتى تجد الله، وتؤمن به، وتتوجه إليه.

ثالثا- سلامة النفس من التمزق والصراع:

ومن ثمرات هذه الربانية ـ ربانية الغاية والوجهة ـ سلامة النفس البشرية من التمزق والصراع الداخلي، والتوزع والانقسام بين مختلف الغايات، وشتى الاتجاهات.

لقد اختصر الإسلام غايات الإنسان في غاية واحدة هي إرضاء الله تعالى، وركز همومه في هم واحد هو العمل على ما يرضيه سبحانه.

ولا يريح النفس الإنسانية شيء كما يريحها وحدة غايتها، ووجهتها في الحياة، فتعرف من أين تبدأ، وإلى أين تسير، ومع من تسير.

ولا يشقي الإنسان شيء مثل تناقض غاياته، وتباين اتجاهاته، وتضارب نزعاته، فهو حينا يشرق، وحينا يغرب، وتارة يتجه إلى اليمين، وطورا يتجه إلى اليسار، ومرة يرضى زيدا فيغضب عمرو، وأخرى يرضي عمرا فيغضب زيد، وهو في كلا الحالين حائر بين رضى هذا وغضب ذاك.

ومن في الناس يرضى كل نفس وبين هوى النفوس مدى بعيد؟!

إن عقيدة التوحيد قد منحت المسلم يقينا بأن لا رب إلا الله يخاف ويرجى، ولا إله إلا الله، يجتنب سخطه، ويلتمس رضاه. وبهذا أخرج المسلم كل الأرباب الزائفة من حياته، وحطم كل الأصنام المادية والمعنوية من قلبه، ورضي بالله وحده ربا، عليه يتوكل، وإليه ينيب، وفي فضله يطمع، ومن قوته يستمد، وله يتودد، وإليه يحتكم، وبه يعتصم: (ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم).

رابعا- التحرر من العبودية للأنانية والشهوات:

ومن ثمرات هذه الربانية: أنها ـ حين تستقر في أعماق النفس ـ تحرر الإنسان من العبودية لأنانيته، وشهوات نفسه، ولذات حسه، ومن الخضوع والاستسلام لمطالبه المادية، ورغباته الشخصية.

وذلك أن الإنسان "الرباني" يقفه إيمانه بالله وباليوم الآخر موقف الموازنة بين رغبات نفسه، ومتطلبات دينه، بين ما تدفعه إليه شهواته، وما يأمره به ربه، بين ما يمليه عليه الواجب، بين متعة اليوم، وحساب الغد، أو بين لذة عاجلة في دنياه، وحساب عسير ينتظره في أخراه.

وهذه الموازنة والمساءلة جديرة أن تخلع عنه نير العبودية للهوى والشهوات، وأن ترتفع به إلى أفق أعلى من الأنانية والبهيمية، أفق الإنسانية المتحررة التي تتصرف بوعيها وإرادتها، لا بوحي بطنها وفرجها وغريزتها الحيوانية.

٢- ربانية المصدر والمنهج:

ذكرنا ما يتعلق بالمعنى الأول للربانية، وهو ربانية الغاية والوجهة، وبقي المعنى الآخر، وهو ربانية المصدر والمنهج. ونعني به أن المنهج الذي رسمه الإسلام للوصول إلى غاياته وأهدافه، منهج رباني خالص، لأن مصدره وحي الله تعالى إلى خاتم رسله محمد صلى الله عليه وسلم.

لم يأت هذا المنهج نتيجة لإرادة فرد، أو إرادة أسرة، أو إرادة طبقة، أو إرادة حزب، أو إرادة شعب، وإنما جاء نتيجة لإرادة الله، الذي أراد به الهدى والنور، والبيان والبشرى، والشفاء والرحمة لعباده. كما قال تعالى يخاطبهم: (يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا)، (يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين).

موضع الرسول في هذا المنهج الإلهي:

الله تعالى هو صاحب هذا المنهج، ولهذا يضاف إليه فيقال: منهج الله، أو "صراط الله" على حد تعبير القرآن العزيز، وإضافته إلى الله تعني أن الله ـ جل شأنه ـ هو واضعه ومحدده، كما أنه غايته ومنتهاه.

أما الرسول صلى الله عليه وسلم فهو الداعي إلى هذا المنهج أو هذا الصراط، المبين للناس ما اشتبه عليهم من أمره. يقول تعالى مخاطبا رسوله: (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا، وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم، صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض، ألا إلى الله تصير الأمور).

ميزة الإسلام بين المناهج القائمة في العالم:

إن الإسلام هو المنهج أو المذهب أو النظام الوحيد في العالم، الذي مصدره كلمات الله وحدها، غير محرفة ولا مبدلة و لامخلوطة بأوهام البشر، وأغلاط البشر، وانحرافات البشر.

والمناهج أو الأنظمة التي نراها في العالم إلى اليوم ثلاثة، فيما عدا الإسلام طبعا:

١.منهج، أو مذهب، أو نظام مدني بشري محض، مصدره التفكير العقلي، أو الفلسفي لبشر فرد، أو مجموعة من الأفراد، كالشيوعية، والرأسمالية والوجودية، وغيرها.

٢.منهج أو نظام ديني بشري كذلك. مثل الديانة البوذية القائمة في الصين، واليابان، والهند، والتي لا يعرف لها أصل إلهي، أو كتاب سماوي، فمصدرها إذن فكر بشري.

٣.منهج أو مذهب ديني محرف، فهو ـ وإن كان إلهيا في أصله ـ عملت فيه يد التحريف والتبديل فأدخلت فيه ما ليس منه، وحذفت منه ما هو فيه، واختلط فيه كلام الله بكلام البشر، فلم يبق ثمت ثقة بربانية مصدره، وذلك كاليهودية والنصرانية، بعد ثبوت التحريف في التوراة والإنجيل نفسيهما، فضلا عما أضيف إليهما من شروح وتأويلات ومعلومات بشرية، بدلت المراد من كلام الله.

أما الإسلام فهو المنهج الفذ الذي سلم مصدره من تدخل البشر، وتحريف البشر، ذلك أن الله تعالى تولى حفظ كتابه، ودستوره الأساسي بنفسه، وهو القرآن المجيد، وأعلن ذلك لنبيه ولأمته فقال: (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون.

الإسلام منهج رباني خالص:

إن الإسلام منهج رباني، مئة في المائة (١٠٠%).

عقائده وعباداته، وآدابه وأخلاقه، وشرائعه ونظمه، كلها ربانية إلهية. أعني في أسسها الكلية، ومبادئها العامة، لا في التفريعات والتفصيلات والكيفيات.

عقيدة ربانية:

عقائد الإسلام عقائد ربانية، مستفادة من كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، من القرآن الكريم الذي أرسى دعائمها، ووضح معالمها، ومن صحيح السنة المبينة للقرآن.

ليست هذه العقائد من وضع مجمع من المجامع، ولا من إضافة هيئة من الهيئات، ولا من إملاء "بابا" من البابوات.

ليس لأحد من تلاميذ ـ محمد صلى الله عليه وسلم ـ ولا من أئمة الإسلام وفقهائه الكبار، أن يغير ويبدل في عقيدة الإسلام بالزيادة أو النقص أو التحوير، كما فعل "سانت بولس" في العقيدة النصرانية، حتى إن بعض الكتاب الغربيين المحدثين ليسمون المسيحية الحاضرة "مسيحية بولس"، وليست مسيحية عيسى بن مريم.

عبادات ربانية :

والعبادات الإسلامية ـ أعني الشعائر التي يتعبد بها الله تعالى ـ عبادات ربانية.

فالوحي الإلهي هو الذي رسم صورها، وحدد أشكالها، وأركانها وشروطها، وعين زمانها فيما يشترط فيه الزمان، ومكانها فيما يشترط فيه المكان.

ولم يقبل من أحد من الناس ـ مهما كان مجتهدا في الدين، ومهما علا كعبة في العلم والتقوى ـ أن يبتكر صورا، وهيئات من عنده للتقرب إلى الله تعالى، فإن هذا افتئات على صاحب الحق الأوحد في ذلك، وهو الله تعالى صاحب الخلق والأمر.

ومن فعل شيئا من ذلك فقد شرع في الدين ما لم يأذن به الله، وعد عمله بدعة وضلالة، ورد عليه عمله، كما يرد الصيرفي النقاد العملة الزائفة.

فقد جاء الإسلام في مجال العبادة بأصلين كبيرين، لا يتساهل في واحد منها قيد شعيرة:

الأول: ألا يعبد إلا الله. فلا عبادة لأحد سواه، ولا لشيء سواه، كائنا ما كان، في الأرض أو في السماء، عاقلا أو غير عاقل، وهذا ما تقتضيه ربانية الغاية والوجهة.

والثاني: ألا يعبد الله إلا بما شرعه. وما شرعه إنما يعرف بواسطة رسله المبلغين عنه، وخاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم، الذي نسخ شرعه كل شرع قبله، والذي كتب الله له الخلود، وتكفل بحفظه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وما عدا ذلك فهو أهواء وبدع مرفوضة، وإن دفع إليها حسن النية، وشدة الرغبة في زيادة التقرب إلى الله جل شأنه. ولكن النية الصالحة وحدها لا تعطي العمل صفة القبول ما لم تكن صورته مشروعة بالنص الثابت.

فالعمل المقبول له ركنان: أن يكون خالصا لله، وأن يكون على سنة رسول الله.

أخلاق ربانية:

والأخلاق الإسلامية أخلاق ربانية: بمعنى أن الوحي الإلهي هو الذي وضع أصولها، وحدد أساسياتها، التي لا بد منها لبيان معالم الشخصية الإسلامية، حتى تبدو متكاملة متماسكة متميزة في مخبرها ومظهرها، عالمة بوجهتها وطريقتها، إذا التبست على غيرها المسالك، واختلطت الدروب.

ولا غرو أن وجدنا القرآن الكريم ذاته يعني برسم المعالم الرئيسة لأدب المسلم، وخلق المسلم، من الإحسان بالوالدين، وخاصة إذا بلغا الكبر أو أحدهما، والإحسان بذوي القربى، ورعاية اليتيم، وإكرام الجار ذي القربى، والجار الجنب، والصاحب الجنب، وابن السبيل، والخدم، والعناية بالفقراء والمساكين، وتحرير الرقاب، والصدق في القول، والإخلاص في العمل، وغض الأبصار وحفظ الفروج، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، والتواصي بالمرحمة، والدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وأداء الأمانات إلى أهلها، والحكم بين الناس بالعدل، والوفاء بالعهد وترك المنكرات، واجتناب الموبقات من الشرك، والسحر، والقتل، والزنى، والسكر، والربا، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات المؤمنات، والتولي يوم الزحف، وغيرها من كبائر الإثم وفواحشه، إلى غير ذلك من الأخلاق الإيجابية والسلبية، الفردية والاجتماعية.

تشريعات ربانية:

والتشريعات الإسلامية لضبط الحياة الفردية والأسرية، والاجتماعية والدولية، تشريعات ربانية: أعني في أسسها، ومبادئها، وأحكامها الأساسية، التي أراد الله أن ينظم بها سير القافلة البشرية، ويقيم العلاقات بين أفرادها وجماعاتها على أمتن القواعد، وأعدل المبادئ، بعيدا عن قصور البشر، وتطرفات البشر، وأهواء البشر، وتناقضات البشر.

وكانت هذه هي المزية الأولى للتشريع الإسلامي على ما سواه من التشريعات قديمها وحديثها، شرقيها وغربيها، ليبرالها، واشتراكيها. فهو التشريع الفذ في العالم الذي أساسه وحي الله وكلماته المعصومة من الخطأ، المنزهة عن الظلم: (وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا، لا مبدل لكلماته، وهو السميع العليم).

وبهذا تقرر في الأصول الإسلامية أن المشرع الوحيد هو الله.

فهو الذي يأمر وينهى، ويحلل ويحرم، ويكلف ويلزم، بمقتضى ربوبيته وألوهيته وملكه لخلقه جميعا، فهو رب الناس، ملك الناس، إله الناس. له الخلق والأمر، وله الملك والملك، وله الحمد في الأولى والآخرة، وله الحكم، وإليه يرجعون.

وليس لأحد غيره حق التشريع المطلق، إلا ما أذن الله فيه مما ليس فيه نص ملزم، فهو في الحقيقة مجتهد أو مستنبط أو مقنن، وليس مشرعا أو حاكما.

حتى الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه ليس مشرعا، وإنما وجبت طاعته، لأنه مبلغ عن الله. فأمره من أمر الله: (من يطع الرسول فقد أطاع الله).

وقد دمغ القرآن بالشرك الذين أعطوا سلطة التشريع المطلق لبعض البشر من رجال الأديان الذين بدلوا كلمات الله، وغيروا شرع الله، فأحلوا ما حرم الله، وحرموا ما أحل الله، افتراء على الله.

الباب الرابع - أهداف الإسلام

بناء الإنسان الصالح

أول ما يهدف إليه الإسلام هو بناء "الإنسان الصالح" الجدير بأن يكون خليفة الله في الأرض، والذي كرمه الله أفضل تكريم، وخلقه في أحسن تقويم، وسخر له ما في السموات وما في الأرض جميعا، فهو إنسان اكتملت فيه خصائص الإنسانية، وارتفع عن حضيض الحيوانية البهيمية أو السبعية، وهذا الإنسان الصالح هو أساس الأسرة الصالحة، والمجتمع الصالح، والأمة الصالحة.

إنسان إيمان وعقيدة:

وإنسان الإسلام هو ـ قبل أي اعتبار ـ إنسان إيمان وعقيدة، قد اتضحت فكرته عن نفسه، وعن العالم من حوله، فهو ليس نباتا (شيطانيا) كنبات البرية، ظهر وحده من غير زارع زرعه، ولا الكون من حوله برز وحده من غير خالق خلقه ومدبر دبره، بل هو يؤمن أن له ربا خلقه فسواه فعدله، وعلمه البيان، ومنحه العقل والإرادة، وأرسل إليه الرسل، وأنزل له الكتب، وأقام عليه الحجة، وعرفه الغاية، والطريق.

كما أن هذا العالم البديع وراءه خالق عظيم، خلق كل شيء فقدره تقديرا، وأعطى كل شيء خلقه ثم هدى، ولكن الذي خلقه سيفنيه، ويبدل به عالما آخر، هو عالم الخلود، فيه توفى كل نفس ما كسبت، وتجزى بما عملت، وهم لا يظلمون.

(وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا، ذلك ظن الذين كفروا، فويل للذين كفروا من النار، أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض، أم نجعل المتقين كالفجار)؟

(ليس بأمانيكم ولا بأماني أهل الكتاب، من يعمل سوءا يجزى به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا، ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا).

وبهذا عاش الإنسان المسلم مؤمنا بالله تعالى، مؤمنا برسالاته، بجميع كتبه ورسله، وآخرها رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، مؤمنا بلقائه تعالى وحسابه وعدالة جزائه، في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، (يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به

علما، وعنت الوجوه للحي القيوم، وقد خاب من حمل ظلما، ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما).

إن هذا الإيمان هو أول ما يميز الإنسان المسلم، فهو مؤمن بعقيدة جوهرها التوحيد، ومعنى التوحيد: أنه لا خالق إلا الله، ولا معبود إلا الله، فهو يعني توحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية، ولا يغني أحدهما عن الآخر، فقد كان مشركو العرب يؤمنون بأن الله هو وحده خالق السموات والأرض، كما حكى عنهم القرآن: (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله).

ومع هذا الإقرار بتوحيد الربوبية، رأيناهم يعبدون مع الله آلهة أخرى، بغير سلطان ولا برهان، إلا دعاوى فارغة، مثل قولهم: (هؤلاء شفعاؤنا عند الله).

(وما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى).

والإسلام جاء دعوة تحريرية كبرى، لتحرير الإنسان من كل عبودية لغير الله تعالى: من عبوديته للطبيعة، وللأشياء، في الأرض كانت أو في السماء، ومن عبوديته للحيوان، ومن عبوديته للشيطان، ومن عبوديته للإنسان، سواء كان ملكا أم كاهنا، بل من عبوديته لنفسه وهواه، فلا يعبد إلا الله، ولا يشرك به شيئا. ولهذا كان يبعث النبي صلى الله عليه وسلم برسائله إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسلام ويختم رسائله إليهم بهذه الآية الكريمة: (يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم: ألا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله).

إنسان نسك وعبادة:

وإنسان الإسلام كذلك، إنسان نسك وعبادة، فهو يعلم أن الكون من حوله خلق له، أما هو فخلق لله وحده، وبهذا أدرك غاية حياته، وسر وجوده.

فعبادة الله وحده لا شريك له، هي غاية غاياته، فلها خلق، ومن أجلها سخر له ما في السموات وما في الأرض. يقول الله تعالى:

(وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون، إن الله هو الرازق ذو القوة المتين).

إن المخلوقات يخدم بعضها بعضا ـ كل جنس يخدم ما كان أعلى منه مرتبة، فالجماد يخدم النبات، والنبات يخدم الحيوان، والحيوان يخدم الإنسان، فمن يخدم الإنسان؟

الإنسان لم يخلق إلا لخدمة ربه وبارئه، أي لعبادته، وعبادته وحده، دون إشراك أحد أو شيء من خلقه في الأرض، أو في السماء.

بهذا بعث الله الرسل على مختلف العصور والأزمان: (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت).

(وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه: أنه لا إله إلا أنا فاعبدون).

ومن هنا يحب الإنسان المسلم متعبدا لله تعالى، مؤتمرا بأمره، منتهيا عما نهى عنه، جاعلا خشيته وتقواه نصب عينه: (إنما يتقبل الله من المتقين).

وتتمثل العبادة أول ما تتمثل في إقامة الشعائر الكبرى التي فرضها الإسلام وجعلها من أركانه العظام، من الصلاة والصيام والزكاة والحج، ثم ما يكملها من الذكر والدعاء وتلاوة القرآن، والتسبيح والتهليل والتكبير.

فالمسلم يذكر ربه في كل حين، وعلى أية حال، في أكله وشربه، وعند نومه وعند يقظته، وفي إصباحه وإمسائه، ولدى مدخله ومخرجه، ويوم سفره وأوبته، وعند لبسه ثوبه، أو ركوبه مركبته، حتى عند ممارسته الغريزية مع أهله لا ينسى في هذه المواقف وغيرها أن يذكر الله تعالى شأن أولى الألباب: (الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم).

وإذا كان أكثر أتباع الأديان لا يعبدون ربهم إلا مرة في كل أسبوع، فإن المسلم على موعد مع الله كل يوم خمس مرات، في صلواته المفروضة، ثم هو مع الله دائما بالنوافل والذكر والدعاء والاستغفار: (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا وسبحوه بكرة وأصيلا).

على أن المسلم يستطيع أن يجعل حياته كلها عبادة إذا التزم منهج الله، وقصد بعمله ـ حتى الدنيوي ـ وجه الله تعالى.

إنسان خلق وفضيلة:

والإنسان المسلم ـ إلى جوار كونه إنسان إيمان وعقيدة، وإنسان نسك وعبادة ـ هو أيضا إنسان خلق وفضيلة، تتجسم فيه الطهارة بكل معانيها، وتتمثل فيه فضائل العدل والرحمة والإيثار، قد اتخذ من رسول الله (أسوة حسنة) وقد بعثه الله (ليتمم مكارم الأخلاق)، ووصفه بأنه (على خلق عظيم)، فهو يقتبس من نوره ويهتدي بهداه، ويتخلق بخلقه، ليكون أقرب إليه يوم القيامة. فهو إنسان قد انتصر على نوازعه وشهواته، حين زكى نفسه بالرياضة والمجاهدة والمراقبة، حتى انتقلت من (النفس الأمارة بالسوء) إلى (النفس اللوامة)، وبهذا استحقت (الفلاح) حين انتصرت فيها التقوى على الفجور، كما قال تعالى: (ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها).

لقد علمنا الإسلام أن الخلق والفضيلة من لوازم العقيدة، وتمام الإيمان، كما أنهما ثمرة لازمة للعبادة الحقة، وإذا لم تثمر العبادة في الخلق والسلوك دل ذلك على أنها عبادة مدخولة.

والقرآن الكريم يحدثنا عن الإيمان مجسدا في أخلاق وفضائل، كما في قوله تعالى: (قد أفلح المؤمنون، الذين هم في صلاتهم خاشعون، والذين هم عن اللغو معرضون، والذين هم للزكاة فاعلون، والذين هم لفروجهم حافظون... والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون..)

والرسول الكريم يحدثنا عن الإيمان كذلك في صورة أخلاق وأعمال وفضائل، كما في قوله صلى الله عليه وسلم: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليصل رحمه، من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت".

"الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها: لا إله إلا الله، وأدناها: إماطة الأذى من الطريق، والحياء شعبة من الإيمان".

وقد ألف الإمام البيهقي كتاب كبيرا سماه "الجامع لشعب الإيمان".

يشمل كل الفضائل وأعمال الخير التي دعا إليها الإسلام، واعتبرها كلها من شعب الإيمان، كما دل على ذلك الحديث.

والعبادات الشعائرية المفروضة من شأنها أن تثمر زكاة النفس، بالفضائل، وطهارتها من الرذائل، كما أشار إلى ذلك القرآن، إذ يقول في شأن الصلاة: (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر)، وفي شأن الزكاة: (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها)، وفي شأن الصيام: (كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون).

وفي الحديث عند البخاري: "من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه".

"رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع، ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر".

وخلق المسلم لا يتجزأ، فهو ليس كخلق اليهودي الذي يحرم الربا في تعامله مع مثله، ويستحله في تعامله مع الآخرين، وليس كخلق إنسان الغرب الاستعماري الذي يتعامل داخل أوطانه بأخلاق وفضائل مثالية، فإذا تعامل مع البلاد الأخرى سرق وظلم، وطغى واستكبر.

المسلم يعدل مع من يحب ومن يكره، مع القريب الأقرب، ومع العدو الأبعد، (كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين).

(ولا يجر منكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله).

إنسان شريعة ومنهج:

والمسلم ـ فضلا عن التزامه بالخلق والفضيلة ـ هو ملتزم كذلك بمنهج رباني، بشريعة محكمة، مفروضة عليه من ربه، أحلت له الحلال، وحرمت عليه الحرام، وحددت له الواجبات، وبينت له الحقوق، وفصلت له كل ما يحتاج إليه، فلم تدعه هملا، ولم تتركه نهبا للفلسفات والأنظمة البشرية المتضاربة، تميل به عن يمين وشمال، بل رسمت له (الصراط المستقيم) وألزمته بالسير فيه، مراعية ما يعرض عليه من ضرورات، فأباحت له بعض ما حظرت عليه بقدر ما توجب الضرورة وحجمها وزمنها، من غير بغي ولا عدوان، كما قال تعالى في شأن الأطعمة المحرمة: (فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه، إن الله غفور رحيم)

المسلم مقيد في حياته كلها بما أحل الله له، فهو ليس (سائبا) يفعل (ما يشتهي)، بل هو منضبط بفعل (ما ينبغي).

فإذا أخذنا الأكل مثلا، فهو لا يأكل الميتة ولا الدم ولا لحم الخنزير، ولا يأكل من اللحم إلا ما ذبح ذبحا شرعيا، أما ما لم يذبح، أو (ذبح على النصب) أو (أهل لغير الله به) فلا يحل للمسلم أكله.

وكذلك لا يحل له أن يأكل طعاما غصب من صاحبه الشرعي، أو سرق أو أخذ بالباطل، كما لا يحل له أن يأكل طعام امرئ بغير طيب نفس منه.

والوعيد في ذلك شديد، فكل جسد نبت من سحت، فالنار أولى به.

وكذلك لا يحل للمسلم أن يتناول أي طعام أو أي مادة يضره تناولها: لأنه ليس ملك نفسه، والإضرار بنفسه حرام، لأنه قتل بطئ لها، والله تعالى يقول: (ولا تقتلوا أنفسكم، إن الله كان بكم رحيما).

والرسول يقول: "لا ضرر ولا ضرار" أي لا تضروا أنفسكم، ولا تضاروا غيركم.

ومن هنا كان تناول (التبغ) وملحقاته، بعد أن ثبت ضرره علما وطبا وواقعا ـ حراما بلا شك، ومن باب أولى: المخدرات التي هي بمنزلة السموم، فالتحريم في الإسلام يتبع الخبث والضرر: (يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث).

كما أن المسلم لا يشرب الخمر، حفاظا على عقله وجسمه وخلقه، ويعتبرها أم الخبائث ورجسا من عمل الشيطان، وكبيرة منافية للإيمان، كما في الحديث الصحيح: "لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن".

وحتى المأكل الحلال، والمشرب الحلال، لا يتناوله المسلم في آنية ذهب ولا فضة، فإن الذي يأكل أو يشرب في آنية الذهب، أو الفضة، إنما يجرجر في بطنه نار جهنم، كما صح بذلك الحديث.

وهو حين يأكل أو يشرب ما يحل له، لا يتجاوز الحد المناسب، فيدخل في دائرة الإسراف المحرم، كما قال تعالى: (يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا، إنه لا يحب المسرفين).

والمسلم في علاقاته الأسرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية مقيد بأحكام الشريعة الإلهية، فهو يتزوج أو يطلق، ويبيع ويشتري، ويستأجر ويؤجر ويكتسب وينفق، ويتملك ويهب، ويرث ويورث، ويحكم ويحتكم، ويسالم ويحارب، وفقا لأوامر الشريعة ونواهيها، واقتضائها وتخييرها: "فما أحل الله فهو حلال، وما حرم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عفو".

إنسان دعوة وجهاد:

والإنسان المسلم فوق ذلك: إنسان دعوة وجهاد، أعني أنه لا يقف عند صلاح نفسه، بل يبذل جهده لإصلاح غيره، ودعوة الآخرين إلى ما هداه الله إليه.

ومن هنا وجدنا سورة العصر ـ على وجازتها ـ تشترط لنجاة الإنسان من خسر الدنيا والآخرة ـ إلى جوار الإيمان وعمل الصالحات ـ التواصي بالحق والتواصي بالصبر: (والعصر، إن الإنسان لفي خسر، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر).

ومعنى التواصي هنا: أن يوصي غيره بالحق ويدعوه إليه، وأن يتقبل من غيره الوصية بالحق كذلك، فكل مسلم موص، وموصى بالحق في الوقت ذاته، وهذا هو معنى التواصي.

فالمسلم بطبيعته داعية، لأنه يوقن أن رسالته للعالم كله، وللزمن كله، وللحياة كلها، فهو يسعى لمد شعاعها، وتعميم رحمتها على العالم: (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين).

وكما أن محمدا صلى الله عليه وسلم بعث رحمة للعالمين، كما علمنا القرآن، وكما قال عن نفسه: "إنما أنا رحمة مهداة"، فأمته مبعوثة كذلك بما بعثه الله به، وكل من اتبعه فهو داعية إلى الله، مقتديا به، كما قال تعالى مخاطبا له: (قل: هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة، أنا ومن اتبعني)، فكل من اتبعه عليه الصلاة والسلام فهو داع إلى الله على بصيرة، أو هكذا يجب أن يكون.

وهكذا قال الصحابي ربعي بن عامر لرستم قائد الفرس: إن الله (ابتعثنا) لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

والمسلم يبدأ دعوته في محيطه الخاص أولا، أي في أهله وأولاده وأسرته، كما قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة)، (وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها، لا نسألك رزقا، نحن نرزقك، والعاقبة للتقوى).

ثم يمتد بدعوته في المجتمع من حوله، داعيا إلى الخير، محذرا من الشر آمرا بالمعروف، ناهيا عن المنكر، فلا يجوز له أن يقف المتفرج، أو غير المبالي، من شيوع المنكر، أو ضياع المعروف، بل لا بد أن يتقدم ليغير المنكر إن استطاع بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان.

ولا يفهم من (التغيير بالقلب) هنا: أنه (موقف سلبي) بل هو (غليان من الداخل) في مواجهة منكر غالب وراءه قوى ظالمة تسنده وتحميه. وهذا الغليان لا بد أن يتجسد يوما في عمل إيجابي له أهميته في تغيير المجتمع.

المهم ألا يتخذ المنكر صفة الشرعية بطول السكوت عنه، فهذا هو الذي يجلب لعنة الله على المجتمعات، ويحل بها سخطه ونقمته: (لعن الذي كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، لبئس ما كانوا يفعلون).

حتى لو كان الذين يقترفون المنكر، أو يحمونه، من أولي الأمر، وأصحاب الشأن، ينبغي للمسلم ألا يضعف في مواجهتهم بالأمر والنهي، بالحكمة والموعظة الحسنة، مستندا إلى قوة الحق الذي معه، وإلى اليقين بأن رزقه بيد الله لا يملك أحد أن ينقصه، وإن أجله عند الله مسمى، لا يستأخر عنه ساعة ولا يستقدم.

وهذا هو الجهاد الداخلي الذي اعتبره النبي العظيم في القمة من أنواع الجهاد حين سئل عن أفضل الجهاد، فقال: "كلمة حق عند سلطان جائر".

وقال في الحديث الذي رواه ابن مسعود: "ما من نبي بعثه الله قلبي إلا كان له حواريون".

ولا يقف المسلم عند حد الجهاد الداخلي بالدعوة والأمر والنهي، بل هو يجاهد بلسانه، ونفسه وماله، لتصل كلمة الله إلى الناس كافة، كما جاء في الحديث: "جاهدوا المشركين بأيديكم، وألسنتكم وأموالكم".

واعتبر القرآن الكريم الجهاد بتبليغ الدعوة من الجهاد الكبير، حين قال لرسوله: (فلا تطع الكافرين وجاهدهم به ـ أي بالقرآن ـ جهادا كبيرا).

وهذه الآية مكية، أي قبل أن يشرع القتال في المدينة بسنوات.

وإذا كانت الأديان الأرضية، والأديان السماوية المحرفة، تسعى لنشر دعوتها في العالم، فأولى بدين الله الخالد والخاتم أن يجد من ينشره في الآفاق حتى يتحقق وعد الله: (ليظهره على الدين كله)، (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق).

إنسان عقل وعلم:

وإذا كان إنسان الإسلام إنسان إيمان وعقيدة، فهو ـ في الوقت نفسه ـ إنسان عقل وعلم، إذ لا تعارض في الإسلام بين الإيمان والعقل، ولا بين الدين والعلم.

الإيمان الإسلامي لا يقول للمسلم ما تقوله أديان أخرى: اعتقد وأنت أعمى! بل يدعوه أن يكون على (بينة من ربه) وأن يؤسس عقيدته على (اليقين) لا على (الظن) وأن يعتمد على (البرهان) لا على (التقليد).

والقرآن ينادي أصحاب الملل والنحل المختلفة بقوله: (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين)، (قل: هل عندكم من علم فتخرجوه لنا؟ إن تتبعون إلا الظن، وإن أنتم إلا تخرصون).

ويدمغ القرآن المشركين بقوله: (إن يتبعون إلا الظن، وإن الظن لا يغني من الحق شيئا).

وكما أنكر القرآن اتباع الظن في الموضع الذي يتطلب اليقين، أنكر كذلك اتباع الهوى والعواطف في مقام يوجب الموضوعية الخالصة. فقال تعالى عن عباد الأصنام: (إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس، ولقد جاءهم من ربهم الهدى).

وإلى جوار ذلك سن حملة شديدة العنف على التقليد الأعمى للآخرين، الذي يجعل الإنسان يلغي عقله، ويفكر بعقل غيره، سواء كان هذا الغير يتمثل في الآباء والأجداد

المعظمين عنده، أو في السادة والكبراء ذوي النفوذ والسلطان الذي قد يبلغ درجة التأله في الأرض، أو في جمهور الناس وغوغائهم الذين اختلت موازينهم.

وفي نقد التقليد للآباء جاءت آيات كثيرة، منها في القرآن المكي قوله تعالى: (وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون، قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم)؟!

وفي القرآن المدني: (وإذا قيل لهم: تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا: حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا، أولو كان أباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون)؟!

وفي نقد التقليد للكبراء والسادة، تقرأ في القرآن المكي، وهو يصور بعض مشاهد الآخرة ومواقف المعذبين في الجحيم بعضهم من بعض: الإتباع والمتبوعين، الأذناب والرؤوس: (كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا اداركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم: ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار، قال: لكل ضعف ولكن لا تعلمون، وقالت أولاهم لأخراهم: فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون).

وهذا التلاوم تكرر كثيرا في السور المكية.

وفي القرآن المدني نقرأ قوله تعالى: (إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا، ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب، وقال الذين اتبعوا: لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا، كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم، وما هم بخارجين من النار).

وفي نقد التقليد للعامة، والاندفاع وراء الجمهور، ولو كانوا على باطل، جاء الحديث النبوي يحذر من هذه التبعية فيقول: "لا يكن أحدكم إمعه، فيقول: أنا مع الناس إن أحسنوا أحسنت، وإن أساءوا أسأت، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا ألا تظلموا" رواه الترمذي وحسنه.

ومن ناحية أخرى يحث القرآن بأبلغ الأساليب على النظر والتفكير والتدبر، سواء في آيات الله الكونية المنظورة، أم في آياته التنزيلية المقروءة والمسموعة، وبعبارة أخرى في المصحف الصامت وهو الكون! والمصحف الناطق وهو القرآن.

اقرأ إن شئت هذه الآيات: (قل: انظروا ماذا في السموات والأرض).

(أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء).

(وفي الأرض آيات للموقنين، وفي أنفسكم، أفلا تبصرون)؟

(سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق).

(قل: إنما أعظكم بواحدة: أن تقوموا لله مثنى وفرادى، ثم تتفكروا).

ومعنى قيامهم لله أن يتجردوا من الأهواء، ويبحثوا عن الحقيقة مخلصين.

وإنما قال: "مثنى وفرادى" ليكونوا بمنأى عن تأثير العقل الجمعي وإيحاءاته، وإنما يفكر المرء مع رفيقه بهدوء، أو مع نفسه حين يخلوا إليها كأنها رفيق يناجيه.

ويقول تعالى: (أفلا يتدبرون القرآن، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا).

(كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته، وليتذكر أولو الألباب).

والقرآن هو الكتاب المقدس الوحيد الذي أمر بالنظر والتفكر والعقل والتدبر، كما أمر بالعبادة والتنسك، فلا غرو أن يعتبر التفكر "فريضة إسلامية" كما قال العقاد ـ رحمه الله ـ، فهذا ما تنادى به الأدلة، ولا غرو أن يعتبر إمام كالغزالي (التفكر) أحد (المنجيات العشرة) الكبرى في كتابه الشهير "إحياء علوم الدين"، وفيه يروى عن السلف: تفكر ساعة خير من قيام ليلة، بل قال بعضهم: تفكر ساعة خير من عبادة سنة!

والعقل عند المسلمين ليس نقيضا للوحي، بل هو الدليل على صدقه، ولهذا يعتبر المحققون من علماء المسلمين: أن العقل أساس النقل، إذ لولا العقل ما عرفنا وجود الله تعالى، ولا أقمنا الأدلة عليه، وأبطلنا شبهات الدهريين والملاحدة... ولولا العقل كذلك ما قام البرهان على إمكان الوحي ووقوعه، وصدق الأنبياء والرسل، وآخرهم محمد صلى الله عليه وسلم.

ولكن للعقل مجالا لا ينبغي أن يتجاوزه، وإلا تاه في أودية الضلال، وهو مجال هذه المخلوقات وما أكثرها، وأوسع مداها، وأما ذات الله تعالى وما يتعلق بجلال شأنه فليس للعقل سلطان عليه، والأولى له التسليم للوحي فيه، والتلقي عنه، بعد أن يثبت هو صحته، فالعقل هو الذي يقيم الدليل على صدق الوحي، ثم يعزل بعد ذلك نفسه ـ كما قال الغزالي ـ ويأخذ عنه ما لا يدخل في اختصاصه من شئون الألوهية وعوالم الغيب، وأحوال الآخرة، كما قال تعالى: (ويسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي، وما أتيتم من العلم إلا قليلا).

وقد روى في حديث: "تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله فتهلكوا".

وبهذا التسليم يوفر الإنسان طاقته العقلية للبحث فيما هو أجدى عليه وأليق به.

وعلى المسلم أن يطلب كل علم نافع مع أهله، فطلب العلم فريضة، منه ما هو فريضة عينية، ومنه ما هو فريضة كفائية على مجموع الأمة، سواء كان علما دينيا أم دنيويا، مما يحتاج إليه الفرد أو المجتمع.

وإنما العلم بالتعليم، وقد منح الله الإنسان أدوات العلم، فلا يجوز له أن يعطلها: (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون).

والقرآن يذم الكفار، ويجعلهم حطب جهنم لتعطيلهم هذه الأدوات: (لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضل).

وينهى القرآن عن اتباع ما ليس للإنسان دليل عليه: (ولا تقف ما ليس لك به علم، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا).

ودليل الماديات هو الحس، ولهذا أنكر القرآن على الذين زعموا الملائكة إناثا بقوله: (أشهدوا خلقهم).

ودليل العقليات هو الفكر: (قل: هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين).

ودليل التاريخيات ونحوها هو النقل الصادق: (ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين).

ودليل الغيبيات والشرعيات هو الوحي: (قل: الله أذن لكم أم على الله تفترون)؟، (نبئوني بعلم إن كنتم صادقين).

وعلى هذه المبادئ أقام الإنسان المسلم حضارة شامخة جمعت بين العلم والإيمان، وتركت آثارها في حياة الإنسان علوما ومعارف شتى، سادت الدنيا قرونا من الزمان.

إنسان عمارة وإنتاج:

والإنسان المسلم ليس راهبا في دير، بل هو إنسان عمل وإنتاج للحياة، يعطيها كما يأخذ منها، ويعد عمارتها هدفا من أهداف خلق الإنسان واستخلافه في الأرض، كما قال تعالى على لسان صالح لقومه: (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها)، ومعنى (استعمركم) أي طلب إليكم عمارتها، والأصل في الطلب هو الوجوب، لا تنافي العبادة، بل هي ـ إذا استقامت على أمر الله، وانضبطت بتعاليم شرعه ـ تصبح عبادة وقربة إلى الله تعالى، كما سيأتي.

والله تعالى وهب الإنسان العقل، وأهله بالعلم لمنصب الخلافة في الأرض، وفضله بذلك على الملائكة، الذين لم يعلمهم ما علم آدم من الأسماء والخصائص، وإنما آثره بذلك ليستخدم عقله وعلمه في تعمير الأرض، والانتفاع بما سخره الله فيها لمصلحته، دون علو ولا إفساد.

وقد جعل الله الأرض للإنسان مهادا وفراشا، وجعل له فيها مستقرا ومتاعا إلى حين وبارك فيها وقدر فيها أقواتها، وأودع فيها أسباب المعايش التي تحقق بقاء هذا النوع إلى ما شاء الله، فما من دابة في الأرض، ولا طائر يطير بجناحيه إلا ورزقه موفور في هذه المعمورة.

ولكن جرت سنة الله ألا ينال رزقه إلا بكدح وسعي، فمن جد وجد، ومن زرع حصد.

يقول الله تعالى: (هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا، فامشوا في مناكبها، وكلوا من رزقه، وإليه النشور).

فمن مشى في مناكب الأرض الذلول أكل من رزق الله، ومن قعد وتقاعس ـ بلا عذر ـ كان جديرا ألا يأكل، إلا أخذا من حق غيره من المشاة العاملين.

والعبادات الشعائرية في الإسلام لا تعطل المسلم عن العمل لدنياه، فهي لا تحتاج إلى تفرغ ولا انقطاع، بل هي دقائق معدودات لكل صلاة من الصلوات اليومية، الموزعة على أوقات اليوم والليلة.

ويوم الجمعة الذي فرضت فيه صلاة أسبوعية على المسلم، ليس يوم انقطاع عن العمل الدنيوي كيوم السبت عند اليهود، بل هو كسائر الأيام، إن شاء المسلم عمل فيه، وإن شاء استراح إن كان لا بد له أن يستريح.

والقرآن يقول: (يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون، فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله).

وبهذا نرى أن المسلم ـ كما يصوره القرآن ـ كان في بيع وشراء وعمل قبل الصلاة حتى إذا سمع النداء، توقف وسعى إلى ذكر الله، فإذا انتهى من الصلاة عاد من جديد يواصل رحلة الكدح في الحياة، منتشرا في الأرض مبتغيا من فضل الله.

و(الابتغاء من فضل الله) تعبير قرآني متميز، عن طلب الكسب من التجارة وغيرها، وهو تعبير له إيحاؤه وتأثيره في نفس المسلم.

والقرآن يصف رواد المساجد، العابدين لله تعالى بقوله: (يسبح له فيها بالغدو والآصال، رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار).

ليس هؤلاء العباد المخلصون رهبانا ولا دراويش، بل هم رجال أعمال وأموال، ولكن لم تلههم دنياهم عن آخرتهم، ولم يشغلهم حظ أنفسهم عن حق ربهم.

والمسلم مطالب أن يعمل لدنياه، بما تيسر له من فروع الإنتاج، زراعة أو صناعة أو تجارة، أو رعيا أو صيدا، أو استخراجا لما في الأرض، أو غير ذلك، مما تحتاج إليه الجماعة.

وفي الحديث الصحيح: "ما من مسلم يغرس غرسا، أو يزرع زرعا، فيأكل منه إنسان أو طير أو بهيمة إلا كان له به صدقة" متفق عليه.

بل جاء في حديث آخر: "إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألا تقوم حتى يغرسها فليغرسها" رواه أحمد والبخاري في الأدب المفرد.

ومعنى هذا أن المسلم مطالب بالعمل للحياة إلى أن تلفظ آخر أنفاسها، سواء انتفع بعمله أحد أم لم ينتفع، إنما هو مطالب بالعمل لذات العمل، فهو عبادة، وجهاد مقدس.

وجاء في حديث البخاري: "ما أكل أحد قط طعاما أفضل من أن يأكل من عمل يده، وأن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده" رواه البخاري.

وفي حديث آخر: "التاجر الصدوق يحشر مع الشهداء".

ولهذا اختلف الفقهاء والشراح: أي هذه الأعمال أفضل وأبر عند الله تعالى: الزراعة أم الصناعة أم التجارة؟

والذي رجحوه أن الأفضل منها ما اشتدت حاجة الناس إليه، وانشغل الناس عنه... فإذا انصرف الناس عن الزراعة إلى الصناعة أو التجارة، لكثرة مكاسبهم بها، مع مسيس حاجتهم إلى الأقوات والثمار، كانت الزراعة أفضل وأعظم مثوبة عند الله.

وإذا انصرف الناس عن الصناعات والحرف، وأصبحوا فيها عالة على غيرهم من غير المسلمين، كان العمل في هذا الميدان أولى وأعظم أجرا.

وإذا احتاج الناس إلى التجارة، لانقطاع الطرق، أو لوجود مخاطر شديدة، أو لقلة المكاسب بها، أو لغلبة بعض الأفراد أو الفئات على الأسواق، وتلاعبهم بالأسعار واحتكارهم للسلع والأقوات، تكون التجارة هنا أفضل.

الباب الخامس - مصادر الإسلام

القرآن الكريم

القرآن والسنة مصدرا الإسلام:

الإسلام هو دين الله الذي أنزل به آخر كتبه، وبعث به آخر رسله، ليخرج به الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد.

وأحكام الإسلام هي مجموعة التكاليف والتعاليم التي دعا إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وبلغها لأمته مما أخبر الله به ـ في كتابه أو على لسان رسوله ـ من حقائق الوجود وعوالم الغيب من كل ما يتصل بالألوهية أو النبوة أو الآخرة.. ومما أمر به سبحانه، أو نهى عنه، أو أباحه لعباده، في شئون الدين والحياة.

فأحكام الإسلام لا تقتصر على الجانب العملي أو التشريعي فحسب من العبادات والمعاملات، مما يعالجه علم "الفقه"، ولا على الجانب النظري أو العقائدي فقط، وهو ما يعالجه علم "التوحيد" أو "الكلام"، ولا على الجانب الروحي، أو الخلقي، مما يعالجه علم "التصوف" أو "الأخلاق"، وإنما يشمل ذلك كله في توازن وتكامل واتساق.

والقرآن الكريم والسنة النبوية هما المصدران الأساسيان المعصومان اللذان تستمدان منهما أحكام الإسلام جميعا، فالقرآن هو المصدر الأول، والسنة هي المصدر الثاني.

لماذا لم يذكر الإجماع والقياس ضمن مصادر الإسلام:

ويعرض هنا سؤال، وهو: لماذا لم يذكر "الإجماع" و"القياس" ضمن مصادر المعرفة بالأحكام الشرعية؟

والجواب، أولا: أن هذين المصدرين يذكران ـ مع الكتاب والسنة ـ بالنسبة "للإحكام الفرعية العملية"، التي يعنى بها "علم الفقه". والحديث هنا عن أحكام الإسلام كلها التي تشمل ـ مع الأحكام الفقهية ـ العقائد والأخلاق والفكر والسلوك. وهذه تعتمد على المصدرين الأساسيين: القرآن والسنة.

وثانيا: أن هذين المصدرين ـ الإجماع والقياس ـ إنما استدل على إثباتهما بالقرآن والسنة، وبهذا ثبتت حجتيهما لا بذاتهما. ومعنى هذا: أن الأصل في الاستمداد والاستدلال هو القرآن والسنة.

وثالثا: أن الكتاب والسنة هما المصدران القطعيان المعصومان اللذان لا يخالف مسلم صحيح الإسلام في حجيتهما بخلاف الإجماع والقياس، ففيهما كلام كثير مذكور في أصول الفقه. وإن كان جمهور الأمة يعتبرونهما.

هناك كلام في الإجماع: في إمكانه، وفي وقوعه، وفي العلم به إذا وقع، وفي حجيته بعد العلم به.

وهناك كلام في القياس وحجيته وشروط قبوله. ونزاع الظاهرية وغيرهم في ذلك معلوم غير مجهول.

وبهذا تحددت مصادر المعرفة بأحكام الإسلام، وبعبارة أخرى: تحددت "المرجعية العليا" للإسلام.

فليست هي لمجمع من المجامع الدينية أو العلمية، كما عرف ذلك عند النصارى ومجامعهم المسكونية المقدسة.

وليست هذه المرجعية لرئيس ديني، مهما علا كعبه في العلم والتقوى، فليس لدي المسلمين "بابا" يوصف بالقداسة والعصمة، كما عند غيرهم.

وليست هذه المرجعية لمدرسة أو مذهب، أو طريقة، قلدها مقلدون في مجال الاعتقاد والفكر، أو في مجال الفقه والتشريع، أو في مجال التربية والسلوك.

فما وجد من ذلك في تاريخ الإسلام وتراثه إنما هو اجتهادات بشر غير معصومين، في فهم الإسلام والعمل به، يؤخذ منهم، ويرد عليهم، من أصاب منهم فله أجران، ومن أخطأ فله، مادام هذا الاجتهاد صادرا من أهله في محله، مصحوبا بالنية الصالحة.

تحددت المرجعية العليا في الإسلام للمصدرين الإلهيين المعصومين: القرآن والسنة، اللذين أمرنا باتباعهما، وأن نرد إليهما ما تنازعنا فيه.

وإن شئت قلت: هو مصدر واحد، أو مرجع واحد، هو "الوحي الإلهي"، سواء أكان وحيا جليا متلوا، وهو القرآن، أم وحيا غير جلي ولا متلو، وهو السنة.

أما عمل "العقل الإسلامي" في تفسير القرآن، وشرح الحديث، واستنباط الأحكام، فلا عصمة له في مفرداته وجزئياته. ولكنه ـ في مجموعه ـ ضروري لفتح المغاليق، وتبيين الطريق، وترشيد الفهم، وتسديد الاستنباط والاجتهاد، حتى لا تزل الأقدام، وتضل الأفهام.

لماذا أنزل الله القرآن؟

إن الله تعالى لم ينزل القرآن العظيم لمجرد التبرك بتلاوته، ولا لتزيين الجدران بآياته، ولا لقراءته على الأموات ابتغاء أن يرحمهم ربهم.

إنما أنزل الله القرآن ليضبط بهدايته مسيرة الحياة، ويحكمها بما أنزل الله من الهدى ودين الحق، ويهدي بنوره البشرية للتي هي أقوم، ويخرج الناس من الظلمات إلى النور.

فالقرآن لم ينزله الله ليتلى على الأموات بل ليحكم الأحياء، لم ينزله لتزدان به الجدران، بل ليزدان به الإنسان.

وبركة القرآن إنما هي في اتباعه والعمل به، كما قال تعالى: (وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون).

حدد القرآن نفسه أهدافه التي أنزله الله ليحققها في الحياة والناس في عبارات أبين من فلق الصباح، مثل قوله: (إنا أنزلناه إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله).

(يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا، فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطا مستقيما).

(قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم).

(وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه، فاحكم بينهم بما أنزل الله، ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق).

(وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك).

(إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون).

(كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد).

(إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعلمون الصالحات أن لهم أجر كبيرا، وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة اعتدنا لهم عذابا أليما).

ومن الضروري ـ لكي نحسن العمل بالقرآن والاهتداء بهداه ـ أن نكون على بينة مما يريده الله تعالى منا في كتابه. وهذا يتوقف على حسن فهمنا له، واستقامة تفسيرنا لآياته وأحكامه، حتى لا نقوله ما لم يقل، ونحمله ما لا يحتمل، أو نزيد عليه ما ليس منه، أو ننقص منه ما هو فيه، أو نقدم ما أخره، أو نؤخر ما قدمه. وهذا ما يحتاج إلى قواعد وضوابط تمنع تلاعب المبطلين، وتأويل الجاهلين، وتحريف الزائغين.

يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض:

وهناك ممن يدعون الإسلام أناس يقولون: نحن نؤمن بالقرآن الكريم، ونخضع لأحكامه، ولكن في بعض المجالات دون بعض، فهم يقبلون أحكامه في مجال العقائد والعبادات والأخلاق، ولكن لا يقبلونها في شئون التشريع والاقتصاد والسياسة وغيرها.

وبعضهم يقبل الأخذ بها في التشريع، ولكن في محيط الأسرة والأحوال الشخصية لا في محيط المجتمع، وأمور الحكم والسياسة والاقتصاد، والعلاقات الدولية.

والعجيب أن يصدر هذا ممن يدعى الإسلام، ويزعم أنه رضي بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا، وبالقرآن إماما!

كيف يصدر هذا ممن يعتقد أن القرآن كتاب الله، وأن كل ما بين دفتي المصحف كلام الله سبحانه؟

هل يستدرك هؤلاء على ربهم؟ أو هم يدعون أنهم أعلم منه بمصالح خلقه؟ أو أبر منه جل شأنه؟

هل يحسب هؤلاء أنهم أنداد لله تعالى، ينازعونه في خلقه، ويشاركونه في حكمه؟ ألا ساء ما يحكمون!

كيف يكون المخلوق ندا للخالق؟ كيف يكون الإنسان المحدث الفاني المحدود والعاجز، ندا للرب الأعلى، الأول بلا ابتداء، والآخر بلا انتهاء. صاحب المشيئة المطلقة، والقدرة القاهرة، الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء؟

ولقد رأينا من زعم أن "القرآن المكي" وحده هو الملزم لنا، وأما "القرآن المدني" فلا يلزمنا، لأنه يتعرض لأمور من أمور حياتنا قد تتغير وتتطور، فلا يجوز أن نجمدها بقرآن ولا سنة!

وهذا ما أنكره القرآن على بني إسرائيل أشد الإنكار، وقرعهم عليه أبلغ التقريع، وتوعدهم عليه بأقسى الوعيد، حين انتقوا من أحكام التوراة ما يعجبهم فأخذوا به، وأهملوا منها ما لا يروق لهم فأعرضوا عنه، فقال سبحانه: (أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض، فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب، وما الله بغافل عما تعملون، أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة، فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون).

كما حذر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم ـ وهو تحذير لكل أمته من بعده ـ أن يفتنه أهل الكتاب عن بعض ما أنزل الله إليه من الكتاب، فلا يحكم به، ولا يعمل بموجبه، يقول تبارك وتعالى: (وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك).

وذم القرآن أبلغ الذم طائفة من المنافقين يرفضون حكم الله ورسوله إذا دعوا إليه ولا يذعنون له إلا فيما يوافق أهواءهم ومصالحهم الخاصة، ونفي عنهم الإيمان نفيا صريحا.

يقول سبحانه: (ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك، وما أولئك بالمؤمنين، وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون،

وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين، أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله، بل أولئك هم الظالمون، إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا، وأولئك هم المفلحون).

هذا هو موقف المؤمنين إذا دعوا إلى حكم الله ورسوله: إذعان بلا تردد، وطاعة بلا تلكؤ: (وأولئك هم المفلحون).

ذلك أن عقد الإيمان بالله ربا، وبمحمد رسولا، وبالقرآن إماما، يقتضي ويوجب ويلزم الرضا بما رضيه الله ورسوله، والالتزام بما ألزما به، وإلا كان الإيمان لفظا بلا معنى، ودعوى بلا حقيقة: (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم).

أما الآخرون الذين لا يذعنون لحكم الله ورسوله، إلا إذا كان لهم فيه حق ومصلحة وهوى، فهم مرضى القلوب، المرتابون: (فأولئك هم الظالمون)، (وما أولئك بالمؤمنين).

القرآن كل ما لا يتجزأ:

والقرآن كل لا يتجزأ، وتعاليمه وأحكامه مترابطة متكاملة، بين بعضها وبعض ما يشبه الوحدة العضوية بين أعضاء الجسم الواحد، فبعضها يؤثر في بعض. ولا يجوز أن يفصل جزء أو أكثر منها عن سائر الأجزاء.

فالعقيدة تغذي العبادة، والعبادة تغذي الأخلاق،وكلها تغذي الجانب العملي والتشريعي في الحياة.

ولا يسوغ في منطق الإيمان ولا منطق العقل أن يقرأ المسلم قول الله تعالى في سورة البقرة: (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون)، فيقول: سمعنا وأطعنا. ولكنه إذا قرأ في نفس السورة قوله سبحانه: (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى) قال: سمعنا وعصينا!!

ولماذا؟ لأن الآية الأولى في مجال العبادات، والأخرى في مجال العقوبات!

ومعنى هذا أن الإنسان أصبح معقبا لحكم الله تعالى، يأخذ منه ويدع، ويقبل منه ويرد، بهواه وحده، والله لا معقب لحكمه.

أو يأخذ من سورة البقرة آية الكرسي: (الله لا إله إلا هو، الحي القيوم، لا تأخذه سنة ولا نوم) الآية.

ولا يأخذ منها آية: (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين، فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله، وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون).

لأن آية الكرسي في الإلهيات، وآيات الربا في المعاملات!!

ومثل ذلك يقال فيمن يقبل من سورة المائدة قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق)... الآية.

ويرفض من السورة قوله تعالى: (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله، والله عزيز حكيم).

ويقرأ قوله تعالى: (فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة)، فيقول: آخذ الصلاة ولا آخذ الزكاة، لأن الصلاة شعيرة روحية خالصة، أما الزكاة ففريضة تتعلق بالمال والاقتصاد، فأنا أقبل ذلك، ولا أقبل هذه!

يا لله العجب! هل غدا العبد أعلم من ربه؟ أو بات المخلوق أعلى من خالقه؟!!

إنه لم يعد ندا لله فحسب، بل زاد على ذلك، فجعل من نفسه محكمة عليا للتمييز، أو للنقض والإبرام، فينقض ما شاء له عقله أو هواه أن ينقض من أحكام الله، ويبرم ما شاء له أن يبرم!

إن الشيء المؤكد الذي لا خلاف عليه، وهو من المعلوم من الدين بالضرورة ـ بمعنى أنه لم يعد في حاجة إلى إقامة أدلة عليه، لأنه مما يشترك في معرفته الخاص والعام ـ أن تعاليم القرآن كلها واجبة التنفيذ، ولا فرق فيها بين ما يسمى "روحيا" وما يسمى "ماديا"، ما يعتبر من "شئون الدين" وما يعتبر من "شئون الدنيا"، ما يتعلق بحياة "الفرد" وما يتعلق بحياة "الجماعة".

إن هذه التسميات والعناوين لا وجود لها في كتاب الله تعالى، ولا توجد فوارق معتبرة بين بعضها وبعض، ما دامت كلها في دائرة أمر الله سبحانه أو نهيه.

ومن فتح المصحف وقرأ سورة الفاتحة، ثم شرع في سورة البقرة، وجد أول ما يطالعه وصف المتقين المهتدين بكتاب الله بأنهم: (الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون)، فقرن بين الجانب الاعتقادي "الإيمان بالغيب"، والجانب الشعائري "إقامة الصلاة"، والجانب الاقتصادي "الإنفاق مما رزق الله".

وهكذا نجد أوصاف المؤمنين وأهل التقوى والإحسان، في سائر سور القرآن لا تفرق بين جانب وجانب. كما نجد ذلك واضحا في أوائل سورة (الأنفال: ٢-٥)، وأول سورة (المؤمنون: ١-١١)، وفي أواسط سورة (الشورى: ٣٦-٣٩)، وفي أوصاف عباد الرحمن من سورة (الفرقان: ٦٣-٧٦)، وفي أوصاف المحسنين من سورة (الذاريات: ١٥-١٩) وغيرها.

ومثل ذلك نجده في الأوامر والنواهي والوصايا القرآنية، مثل: الوصايا العشر في سورة الأنعام: (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم..).

ووصايا الحكمة في سورة الإسراء: (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا..).

فهذه كلها تجمع بين العقيدة والعبادة والخلق والسلوك، مما يتعلق بالدين وما يتعلق بالدنيا، وما يتعلق بالفرد أو بالأسرة أو بالمجتمع، في سياق واحد، ونسج واحد لا ينفصل بعضه عن بعض، ولا يتميز بعضه عن بعض.

وأحيانا يستخدم القرآن صيغة واحدة في طلب الأمور التي يعتبرها الناس مختلفة باختلاف مجالاتها، مثل قوله تعالى: (كتب عليكم القصاص في القتلى)، (كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقا على المتقين)، (كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون)، (كتب عليكم القتال وهو كره لكم).

فهذه صيغة واحدة: (كتب عليكم) وهي تفيد تأكيد الوجوب والفرضية استعملت في القصاص وهو في القانون الجنائي، وفي الوصية وهي من الأحوال الشخصية وشئون الأسرة، وفي الصيام وهو من شعائر العبادات، وفي القتال وهو من شئون العلاقات الدولية.. وكلها مما كتبه وفرضه على المؤمنين.

حجية السنة في التشريع والتوجيه:

السنة: هي المنهج النبوي المفصل في تعليم الإسلام وتطبيقه وتربية الأمة عليه، والذي يتجسد فيه قوله تعالى: (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين).

ويتمثل ذلك في أقواله صلى الله عليه وسلم وأفعاله وتقريراته.

والسنة: هي المصدر الثاني للإسلام بعد القرآن الكريم.

فالقرآن هو الدستور الذي يحوي الأصول والقواعد الأساسية للإسلام: عقائده وعباداته، وأخلاقه، ومعاملاته، وآدابه.

والسنة: هي البيان النظري والتطبيق العملي للقرآن في ذلك كله.

ولهذا يجب اتباعها والعمل بما جاءت به من أحكام وتوجيهات. وطاعة الرسول فيها واجبة، كما يطاع فيما بلغه من آيات القرآن.

دل على ذلك القرآن.

ودلت على ذلك السنة نفسها.

ودل على ذلك إجماع الأمة.

ودل على ذلك العقل والنظر.

وهذا موضح بأدلته في كتبنا الأخرى.

ومع ذلك ابتليت أمتنا ـ قديما وحديثا ـ بفئة قليلة العدة، ضعيفة العدة، قصيرة العرفان، طويلة اللسان، زعموا أننا في غير حاجة إلى السنة، وأن القرآن يغنينا عنها، وأنه وحده مصدر الدين كله، عقائده وشرائعه، ومفاهيمه وقيمه، وأخلاقه وآدابه.

شبهات أعداء السنة:

واستندوا فيما زعموا ـ ككل صاحب بدعة وضلالة ـ إلى شبهات حسبوها أدلة، وهي مردودة عليهم بحجج أهل العلم التي لا تخلو الأرض منهم.

استدل الذين يزعمون أنهم أهل القرآن وأنصاره بما يلي:

١.قول الله تعالى: (ما فرطنا في الكتاب من شيء)، (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء).

٢. أن الله تعالى تكفل بحفظ القرآن فقال: (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)، ولم يتكفل بحفظ السنة.

٣. أن النبي صلى الله عليه وسلم جعل للقرآن كتابا يكتبونه منذ نزل به جبريل عرفوا باسم "كتاب الوحي"، ولم يجعل ذلك للسنة، بل صح عنه قوله: "لا تكتبوا عني شيئا غير القرآن".

٤. أن السنة من أجل ذلك دخلها المنكر والموضوع، وما لا أصل له من الحديث، فضلا عن الضعيف والواهي وما لا يصلح للاحتجاج به، واختلط الحابل بالنابل، فلم يعد في الإمكان التمييز بين ما يصح وما لا يصح.

حجج علماء السنة في الرد عليهم:

وهذه الشبهات كلها لا تصمد أمام التمحيص العلمي، وكلها مردودة.

* القرآن يبين القواعد، والسنة تفصل الأحكام:

١. أما قوله تعالى: (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء)، فالمراد بهذه "الكلية": ما يتعلق بالأصول والقواعد الكلية التي يقوم عليها بنيان الدين في عقيدته وشريعته، ومن هذه الأصول: أن الرسول مبين لما نزل إليه، وبعبارة أخرى: أن السنة مبينة للقرآن: (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما أنزل إليهم).

ولم يفهم أحد ـ في الأولين ولا الآخرين ـ أن التبيان القرآني تبيان تفصيلي، وإلا فإن العبادة الأولى، والفريضة اليومية، والشعيرة الكبرى في الإسلام (الصلاة) لا يوجد في القرآن أي تفصيل لها: لا عددها، ولا مواقيتها، ولا ركعاتها، ولا كيفياتها، ولا تفاصيل شروطها وأركانها، وكلها عرف بالسنة، وهو من المعلوم من الدين بالضرورة.

* حفظ الله للقرآن يستلزم حفظ السنة:

٢. أن قوله تعالى: (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) يدل على حفظ القرآن بدلالة المطابقة، ويدل على حفظ السنة المبينة للقرآن بدلالة التضمين، فإن حفظ المبين يتضمن ويستلزم حفظ ما يبينه، لأن هذا من جملة الحفظ. كما بين ذلك الإمام الشاطبي رضي الله عنه.

فالحفظ له مظهران: مظهر مادي وهو حفظ الألفاظ والعبارات أن تنسى أو تحذف أو تبدل. ومظهر معنوي، وهو حفظ المعاني أن تحرف أو تمسخ وتشوه.

والكتب السماوية السابقة لم يتكفل الله بحفظها، واستحفظها أهلها، فلم يحفظوها، فتعرضت لنوعين من التحريف: التحريف اللفظي بتبديل الألفاظ بأخرى أو إسقاطها، والتحريف المعنوي بتأويلها بما يبعدها عن مراد الله تعالى منها.

وقد حفظ الله القرآن من كلا التحريفين، وكان البيان النبوي بالسنة من تمام حفظ الله تعالى لكتابه، وتصديقا لوعده بذلك حين قال: (ثم إن علينا بيانه).

ولقد أثبت التاريخ العلمي للمسلمين صدق ذلك، وحفظ الله تعالى سنة نبيه، كما حفظ كتابه الكريم.

وقام في كل عصر حراس أيقاظ، يحملون علم النبوة، وميراث الرسالة، يورثونه للأجيال، مشاعل تضيء، ومعالم تهدي، تصديقا لتلك النبوءة المحمدية، والبشارة المصطفوية: "يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين".

* أطوار تدوين السنة:

٣. صحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يجعل للسنة كتابا يكتبونها كالقرآن، بل نهى عن كتابة غير القرآن في أول الأمر، لتتوفر الهمم على كتابة القرآن، لقلة الكاتبين، وقلة مواد الكتابة وتنوعها، وعسرها، وخشية اختلاط القرآن بغيره. ولكنه كتب أشياء مهمة لتبلغ عنه وتنفذ، مثل كتبه في الصدقات والديات وغيرها، وأذن لبعض الصحابة أن يكتبوا، مثل عبد الله بن عمرو وغيره. وحث على تبليغ الأحاديث لمن لم يسمعها بدقة وأمانة، وجاء في ذلك حديثه المستفيض، بل المتواتر عند بعض العلماء: "نضر الله امرءا سمع مقالتي، فوعاها، فأداها كما سمعها، فرب مبلغ أوعى من سامع"، وفي رواية: "فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه".

ومن الثابت بيقين لدى الباحثين المتخصصين اليوم: أن تدوين السنة لم يبدأ في رأس المائة الأولى للهجرة، كما قيل يوما، بل إن للتدوين أطورا بدأت منذ عصر النبوة، ونمت بعد ذلك في عصر الصحابة فمن بعدهم، كما دلت على ذلك الدراسات العلمية الموضوعية.

* جهود علماء الأمة في خدمة السنة وتنقيتها:

٤. من المؤكد أن هناك من كذبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم متعمدين لدوافعشتى، فاستحقوا أن يتبوءوا مقعدهم بين عيني جهنم، ولا غرو، فهناك من افتروا الكذب على الله ذاته، ومن قال: أوحي إلي ولم يوح إليه شيء! ولكن من المؤكد أن علماء الأمة وصيارفة السنة، تصدوا لهؤلاء الدجالين، وكشفوا أستارهم، وفضحوا زيفهم، وقد قيل للإمام عبد بن المبارك: هذه الأحاديث الموضوعة؟ قال: تعيش لها الجهابذة!

ولقد عاش لها الجهابذة النقاد بالفعل، وطاردوها كما يطارد الخبراء النقود الزائفة في الأسواق، فقد تروج لدى بعض العوام، وتمر من يد إلى يد ثانية في غفلة عن الأعين الساهرة، ثم لا تلبث أن تضبط وينكشف زيفها وغشها.

وضع علماء الحديث القواعد الضابطة، ورفعوا المنارات الهادية، وأسسوا علوم الحديث ومصطلحه، واشترطوا لقبول الحديث شروطا أشرنا إليها من قبل. وهو ما لم تفعله أمة سبقت لحفظ تراث نبيها من الضياع أو التزوير.

وما قيل من أن الصحيح قد التبس بالضعيف، والحابل اختلط بالنابل، فهو ادعاء من لم يغص في بحار هذا العلم الشريف، ولم يسبر أغواره، ولم يطلع على الجهود الضخمة التي بذلتها عقول كبيرة، وملكات عالية، ومواهب خارقة، نذرت نفسها لخدمته وتجليته والدفاع عنه. فأسسوا علوم الرجال والطبقات والتواريخ، للثقات والمقبولين، وللضعفاء والمجروحين، وصنفوا في نحو تسعين علما ابتكروها عرفت باسم "علوم الحديث"، وكانت هي للحديث بمثابة "الأصول" للفقه. وأفردوا الصحيح من غيره، وعنوا بأحاديث الأحكام، وألفوا في الأحاديث الواهية والموضوعة. وكذلك في علل الأحاديث ونقدها.

إن التاريخ لم يسجل لأمة في حفظ تراث نبيها ما سجل لهذه الأمة الخاتمة. ووجود أحاديث زائفة لا يجعلنا نلقى الأحاديث كلها في سلة المهملات. هل يقول عاقل بإلغاء النقود السليمة وتحريم التعامل بها، أو اعتبارها عديمة القيمة، لأن هناك من المزورين من زيفوا بعض العملات، وروجوه لدى بعض الغافلين؟!

الاستغناء عن السنة بالقرآن مخالف القرآن:

ثم إن الذين يزعمون الاستغناء عن السنة بالقرآن يخالفون ـ أول ما يخالفون ـ القرآن ذاته مخالفة صريحة.

فالقرآن يأمر بطاعة الرسول، بجوار طاعة الله تعالى، وذلك في عدد من الآيات الكريمة.

بل اعتبر القرآن الكريم طاعة لله تعالى، كما اعتبر بيعته بيعة لله تعالى: (من يطع الرسول فقد أطاع الله)، (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله).

وهذه بعض الآيات الآمرة بطاعة الرسول مع طاعة الله:

(وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا، فإن توليتم فاعلموا إنما على رسولنا البلاغ المبين).

(يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون).

(قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم، فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله ورسوله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، ذلك خير وأحسن تأويلا).

ولو كانت طاعة الرسول تعني اتباع القرآن وحده، لم هناك معنى لعطف الأمر بطاعته على طاعة الله تعالى، إذ العطف يقتضي المغايرة، وقد طلب الطاعة ـ في غير موضع ـ لكل منهما. فأفاد أن لكل منهما طاعة مستقلة.

وللعلامة ابن القيم كلام جيد في معنى الآية التي ذكرناها من سورة النساء.

جل أحكام الفقه مرجعها السنة:

والحق الذي لا مراء فيه: أن جل الأحكام ـ التي يدور عليها الفقه في شتى المذاهب المعتبرة ـ قد ثبت بالسنة.

ومن طالع كتب الفقه تبين له ذلك بكل جلاء! ولو حذفنا السنن، وما تفرع عليها واستنبط منها من تراثنا الفقهي، ما بقي عندنا فقه يذكرا!!

ولهذا كان مبحث "السنة" ـ باعتبارها الدليل التالي للقرآن ـ في جميع كتب أصول الفقه، ولدى جميع المذاهب المعتبرة مبحثا إضافيا طويل الذيول، يتناول حجيتها وثبوتها وشروط قبولها، ودلالتها، وأقسامها، إلى غير ذلك مما لا يخفى على الدارسين.

وهذا ـ كما قلت ـ ينطبق على جميع المذاهب، من مذهب داود وابن حزم الظاهري المنكرين للقياس والتعليل، إلى أبي حنيفة وأصحابه الذين يعرفون باسم "مدرسة الرأي" في تاريخ الفقه الإسلامي.

بين السنة والقرآن

وإذا كان كل من القرآن والسنة مصدرا ربانيا للهداية والتشريع، فما لا ريب فيه أنهما ليسا بمنزلة واحدة، وأن بينهما فروقا أساسية:

(أ) فالقرآن كله قطعي الثبوت، لأنه منقول بالتواتر اليقيني، جيلا عن جيل، أما السنة فأقلها ما ثبت بالتواتر، وأكثرها إنما ثبت بطريق الآحاد.

(ب) القرآن كله ثبت بطريق الوحي الجلي بواسطة نزول أمين الوحي ـ جبريل عليه السلام ـ على قلب النبي صلى الله عليه وسلم: كما نطق بذلك القرآن نفسه: (نزل به الروح الأمين، على قلبك لتكون من المنذرين).

أما السنة فمنها ما ثبت بطريق الإلهام والنفث في الروع، وما ثبت بالرؤيا الصادقة، وكلا الطريقين ليس من الوحي الجلي. ومنها ما يثبت بطريق الاجتهاد، الذي يقره الله تعالى عليه، وهي ما يسمى "الوحي الباطن"، فإن الله تعالى لا يقره على خطأ، حتى لا يتبع فيه.

(ج) القرآن لفظه ومعناه من الله تعالى، أما السنة ـ أعني القولية منها ـ فلفظها من النبي صلى الله عليه وسلم. ولهذا لا يجوز رواية القرآن بالمعنى، بخلاف الحديث، أو السنة.

(د) القرآن محفوظ بجملته وتفصيله، بألفاظه ومعانيه، بصريح وعد الله تعالى: (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون).

أما السنة فهي محفوظة ضمنا، بحفظ الله القرآن، باعتبارها بيانا له، وحفظ المبين يستلزم حفظ ما يبينه، كما أن حفظ السنة إنما هو حفظ لها في الجملة لا في التفصيل.

(هـ) القرآن متميز بالإعجاز، فهو الآية العظمى لمحمد صلى الله عليه وسلم، بخلاف الحديث، وإن كان في قمة البلاغة البشرية.

السنة الصحيحة لا تعارض القرآن:

السنة ـ إذن ـ مبينة للقرآن، أو مؤكدة له، أو شارعة لأحكام مستقلة في إطار مقاصده وكلياته، وليست معارضة له، ولا توجد سنة صحيحة صريحة تعارض القرآن. وما وجد من ذلك فلا بد أنه صحيح غير صريح، أو صريح غير صحيح. وغير الصحيح لا اعتبار له، وغير الصريح يجب تأويله بما يتفق مع القرآن، لأن القرآن هو الأصل، والفرع لا يخالف أصله.

ويحسن بي أن أنقل هنا ما ذكره المحقق ابن القيم في "إعلام الموقعين" عن علاقة السنة بالقرآن، قال: "والسنة مع القرآن على ثلاثة أوجه:

أحدهما: أن تكون موافقة له من كل وجه، فيكون توارد القرآن والسنة على الحكم الواحد من باب توارد الأدلة وتضافرها.

الثاني: أن تكون بيانا لما أريد بالقرآن وتفسيرا له.

الثالث: أن تكون موجبة الحكم سكت القرآن عن إيجابه أو محرمة لما سكت عن تحريمه. ولا تخرج عن هذه الأقسام، فلا تعارض القرآن بوجه ما.

فما كان منها زائدا على القرآن فهو تشريع مبتدأ من النبي صلى الله عليه وسلم تجب طاعته فيه، ولا تحل معصيته، وليس هذا تقديما لها على كتاب الله، بل امتثال لما أمر الله به من طاعة رسوله، ولو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يطاع في هذا القسم لم يكن لطاعته معنى، وسقطت طاعته المختصة به، وأنه إذا لم تجب طاعته إلا فيما وافق القرآن لا فيما زاد عليه، لم يكن له طاعة خاصة تختص به، وقد قال الله تعالى: (من يطع الرسول فقد أطاع الله).

مرجع السنة إلى القرآن:

هذه هي منزلة السنة من الكتاب: منزلة البيان من المبين، فالقرآن هو الأصل والسنة شارحته وموضحته، وكل ما في السنة يرجع إلى الكتاب، بوجه من الوجوه، وقد أوضح ذلك الإمام الشاطبي في الموافقات، وأقام عليه الأدلة، وضرب له الأمثلة.

فتحريم الجمع بين المرأة وعمتها، أو المرأة وخالتها، مثلا ـ إنما هو ضرب من القياس على حكم القرآن في تحريم الجمع بين الأختين، للاشتراك في العلة التي نبه عليها الحديث بقوله: "إنكم إن فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم".

وتوريث الجدة نصيب الأم عند فقد الأم قياس لها على الأم، فهي أم من وجه.

وتحريم كل ذي ناب من السباع تطبيق لقوله تعالى: (ويحرم عليهم الخبائث)، كما أشار إلى ذلك الإمام الشافعي رضي الله عنه.

وتحريم الأكل والشرب في أواني الذهب والفضة، وما في معناها تطبيق لما حفل به القرآن من الحملة على الترف والمترفين، واعتبار الترف من أسباب الفساد والانحلال للأمة حتى يدمرها تدميرا.

وتحريم الخلوة بالأجنبية تطبيق لقول القرآن: (ولا تقربوا الزنى، إنه كان فاحشة وساء سبيلا)، لأن النهي بقوله: (ولا تقربوا) يعني النهي عن مقدمات الزنى، والخلوة منه.

ومثل ذلك: أن النبي صلى الله عليه وسلم لعن مع شارب الخمر تسعة آخرين، وذلك يدخل في قوله تعالى عن الخمر: (رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه)، والاجتناب أبلغ من مجرد الترك، فيتضمن العصر والسقي والحمل والبيع وما في معناها.

وقال ابن برجان: ما قال النبي صلى الله عليه وسلم من شيء فهو في القرآن، وفيه أصله، قرب أو بعد، فهمه من فهمه، وعمه عنه من عمه، قال تعالى: (ما فرطنا في الكتاب من شيء).

فليس من السنة في شيء خارج عن القرآن، فضلا عن شيء يخالفه ويعارضه. وإنما فيها ما يبين إجماله، أو يخصص عمومه، أو يقيد إطلاقه.

والحمد لله رب العالمين أولا وآخرا.

الفهرس

مقدمة.. ٢
الباب الأول - الحاجة إلى الدين.. ٤
الباب الثاني - مقومات الإسلام... ٢٧
الباب الثالث - خصائص الإسلام.. ٤١
الباب الرابع - أهداف الإسلام... ٥٠
الباب الخامس - مصادر الإسلام.. ٦٥

www.al-mostafa.com